

تأليف

فهد المارك

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

مِن شِيَمِ

الملك عبد العزيز

الطبعة الثانية

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

الفصل الثامن

في وَفاءِ عَبْد العَزيز



عندما كتبت مؤلفي ذي الأجزاء الأربعة « من شيم العرب » وضعت فصل الوفاء في مقدمة الجزء الأول ، وها أنذا أقدم فصل الوفاء على الفصول الأخرى التي سأوردها بعد هذا الفصل ، كالعفو والسخاء والشجاعة وحماية المستجير ومواساة رفيق السفر الخ .

وحينما أقدم الوفاء على هذه القيم فما ذلك إلا من أجل قناعتي وإيماني بأن كل سجية من سجايا بني الإنسان الحسنة قابلة لأن يكون بها المرء وسطاً ، اللهم إلا الوفاء فإن الوسط فيه عيب كبير لمن ينعت به .

وقد لا يرى الإنسان ما يعيبه إذا نعته أحد بأنَّ شجاعته وسط ، وذلك لأن ما فوق الوسط من الشجاعة يعتبر تهوراً ، والتهور معلوم أنه ممقوت ، أو ضرب من الجنون

وكذلك لا يرى المرء ما يشينه إذا سمع من يقول عنه بأَنه وسط في سخائه وكرمه ، وذلك لأَن ما فوق الوسط ينظر إليه بأَنه مسرف يؤخذ على يده ، أَما إذا قيل : إن فلاناً وسط في وفائه فإن ذلك عيب كبير على من ينعت بهذا الوصف .

إذنْ فالوفاء هو أَعز القيم ، وأَنبل الشيم ، وهذا مما جعل الشاعر علي بن الجهم يقول :

حلبنا الدهْرَ أَشْطُرَهُ ومَرَّتْ بنَا عِقَبُ الشدائد والرخاء
وجرّبنا وجرَّب أَوَّلونا فلا شيء أَعز من الوفاء

وإذا كان الوفاء أَنبل سجايا بني الإنسان وأَعزها ، فان لعبد العزيز قسطاً وافراً في الوفاء ، على مختلف أَنواعه ، وشتى أَقسامه ، سواء وفاؤه بالعهد الذي أَوردته بصفحة تحدثت عنه فيما تقدم وسوف أَورد قسماً منه في هذا الفصل ، أَو وفاؤه مع أَصدقائه بصورة خاصة ، أَو وفاؤه وعطفه على من يستحقون الوفاء والعطف بصورة عامة.

وأَي نوع من أَنواع الوفاء المتعدد الأَطراف سوف أَورده في هذا الفصل ، بصورة واضحة ، وسأُسند ما أَذكره إلى مصدره .

مَادَامَ عَبْدُ العَزِيزِ وَفِيّاً مَعَ أَعْدَائِهِ
فَحَرِيٌّ بِهِ أَنْ يَفِي مَعَ أَعْدَاءِ أَهْلِهِ

من المعلوم أَن بين الأُسرة الخديوية ، وبين الأُسرة السعودية عِداءً قديماً ، منذ عهد مؤسس حكم الأُسرة الخديوية محمد علي باشا الأَلباني ، الذي بدأَ بحرب آل سعود منذ الحملة الاولى التي كانت في عام ١٢٢١ هـ بقيادة أَحمد طوسون بن محمد علي ، ثم توالت الحملات على آل سعود منه ، بإيعاز من السلطان التركي – وبقيادة ابراهيم باشا ابن محمد علي – وذلك عام ١٢٣٣ هـ – وقد استولى ابراهيم باشا على الإمام عبد الله بن سعود ، وتم لإبراهيم السيطرة على ملك آل سعود ، ثم جاء الإمام تركي بن عبد الله آل سعود – وأَعاد حكم اسرته إلى مكانه الطبيعي ، وبعد تركي ابنه فيصل الجد الثاني للملك خالد بن عبد العزيز ملك البلاد الآن – ثم جهز



الملك عبد العزيز و الملك فاروق

خديوي مصر جيشاً عرمرماً ، وغزا نجدا مرة ثالثة واستولى عليها بعد أن هزم الإمام فيصلا وذلك عام ١٢٥٣ .

ومن هنا يبدو الأمر واضحاً فإن الحرب بين آل سعود وبين الأسرة الخديوية كانت بعيدة المدى ، وقديمة العهد، ويبدو الأمر واضحاً أيضاً أن الأسرة الخديوية أساءت إلى اسرة آل سعود ، بغزوها لها ، بحروب امتدت اثنتين وثلاثين سنة ، وقضت اسرة الخديوي على حكم آل سعود مرتين على التوالي.

وفاء عبد العزيز مع أصدقائه

بدأت أواصر الصداقة بين الملك عبد العزيز والملك فاروق تزداد ـ وذلك منذ أن تبادلا الزيارة ، بتاريخ ١ـ٢ـ١٣٦٤ هـ الموافق ٢٤ـ١ـ١٩٤٥ .

وحينما قام الضباط المصريون بثورتهم على الملك فاروق في عام ١٩٥٢ جاء إلى القاهرة الأمير فيصل وكان مجيؤه من أجل أن يحضر مؤتمر الجامعة العربية ، الذي تم انعقاده في ذلك العام ، وقد نزل في فندق (سميراميس) ـ فزاره الضباط المصريون الذين قاموا بالثورة ، وجمال عبد الناصر من بينهم ، وكان اسمه لم يلمع بعد وذلك في الأيام الأولى للثورة .

وفي ذلك الاجتماع دار الحديث بين الأمير وبين الضباط الذين كانوا بحاجة إلى تأييد الملك عبد العزيز ،

على اعتبار أَن انقلابهم لا زال في المرحلة الأُولى ، وهو وإن لم يكن أَول انقلاب في العالم العربي ، فإنه الأَول من نوعه بين الانقلابات التي أُزيل فيها عرش ملك يتبوأُ أَكبر عرش في العالم العربي ، وهو عرش فاروق .

كان الضباط المصريون ينتظرون من الامير فيصل الكلمة التي يعرفون فيها رأْي والده الملك عبد العزيز .

وكان الكلام الذي سمعه الضباط من الأَمير فيصل نقلاً عن والده يتلخص بالمعاني الآتية :

(إن الملك عبد العزيز لا شأْن له فيما يتصرف به الضباط في شؤون بلادهم ، فهم أَهل البلاد ، ولهم أَن يتصرفوا في شؤون بلادهم كيف يشاؤون ما دام شعبهم مؤيداً لهم ومعترفاً بهم ، وإنما الذي يصارح به الملك الضباط هو أَنه لن يتخلَّى عن صديقه الملك السابق فاروق ، فسوف لا يجعله يحتاج إلى المال ، بل سوف يواسيه ويدعمه مادياً كصديق يفرض عليه وفاؤه أَن لا يتخلى عن صديقه في محنته ـ ومضى الأَمير فيصل وقال للضباط ما معناه : أَمرني والدي أَن أُخبركم صراحة بهذه الحقيقة ،



الملك الشهيد فيصل

لكي لا تتصوروا إذا بلغكم خبر وفائه للملك السابق فاروق ، أنه يتآمر عليكم بقدر ما يفرض عليه الوفاء العربي أن يقوم بهذا الواجب تجاه صديقه في محنته هذه وفي منفاه هذا .

يقول الراوي الذي أنقل عنه هذا الحديث ـ وهو الشيخ علي محمد علي زينل الذي أكد أنه كان حاضراً في ذلك المجلس وسامعاً هذا الحديث يقول : إن الذي تولى الإجابة على كلام الأمير فيصل هو جمال عبد الناصر ، الذي قال ما معناه : إننا منذ أن عرفنا تاريخ الملك عبد العزيز وقرأناه، وهو كبير في نفوسنا ، وأنه بعدما سمعناه من وفائه هذا زاد في نفوسنا إجلالاً وإكباراً الخ .. .

عَبْدُالعَزيزيَفعَلُ الوَفاءَ مِنْ أَجلِ الوَفاء

أُعجبت إعجاباً لا مزيد عليه بأَبيات قرأْتها في جريدة البلاد السعودية ، للشاعر محمد سعيد عتيبي أَحفظ منها قوله :

أَسْتلهم الشِّعْرَ من عقلي ووجداني
وأُوثر الصِّدْقَ في سِرِّي وإعلاني
ولست بالشاعر المأْجور يدفعه
إلى الأَكاذيب حبُّ المنزل الفاني
حبُّ الصراحة أَقصاني وأَبعدني
عن كلِّ مجتمع في أَرض أَوطاني

لا أَحب شيئاً كحبي للصراحة والوضوح ، ولا أَكره شيئاً كما أَكره النفاق والغموض .ولا أَذكر أَنني كتبت مقالاً بغير اسمي الصريح ، وقد أَوشكت أَن أَتخلى عن



يتوسط قادة الثورة المصرية اللواء محمد نجيب وعن يمينه البكباشي اي المقدم جمال عبد الناصر . وعن يمين جمال الصاغ عبد الحكيم عامر اي الرائد . وعن يمين عامر الصاغ جمال سالم (رائد) وعن يسار اللواء نجيب الصاغ الرائد عبد اللطيف البغدادي وعن يسار البغدادي الصاغ الرائد حسين زكريا وعن يساره الصاغ الرائد صلاح سالم ويقف خلفهم من اليسار الرئيس الحالي محمد أنور السادات ، وحسين الشافعي وخالدمحي الدين ،وحسن إبراهيم ، وزكريا محي الدين .

صراحتي التي فطرت عليها وأن أُواري قسماً من الصراحة في ذكر جانب من وفاء الملك عبد العزيز في حق احدى الأُسر لا لشيءٍ إلا لأَن عميد تلك الأَسرة كان وفياً مخلصاً لوطنه العربي .

ومصدر إعجابي بوفاء عبد العزيز لذلك الرجل يتلخص بما يلي :

أَولاً – إن عبد العزيز لم يكن يعرفه ، بل ولم يكن من بلاده ، وكل ما في الأَمر أَن الملك عبد العزيز أَولى جانباً من عطفه على أَسرة ذلك الرجل بعدما اغتاله منافسوه السياسيون ، فأَمر بصرف مرتب شهري يجري لأَبناء المقتول غيلةً ، وذلك منذ ربع قرن وهو مرتب كاف لحاجات أَبنائه .

ثانياً – لم يقدم أَولياء المقتول أَي طلب لعبد العزيز يشيرون به لا من بعيد ولا من قريب ، إذ لم يكن لعميدهم المقتول أَدنى صلة بعبد العزيز تشفع لهم بذلك . وكل ما في الأَمر أَن عبد العزيز أُخبر بفاقة أَبناء المقتول وبيتهم وعن وضع امهم الثكلى ، والجدير بالذكر أَن الأَمر

الذي يصدره عبد العزيز يظل ساري المفعول بعد مماته .

ثالثاً - تأْتي روعة ذلك الوفاء من أَنه جمع بين وفاء عبد العزيز لأَجل الوفاء فقط ، وبين عدله أَيضاً . لأَن الذي نفذ الاغتيال كانت تجري له هبة من عبد العزيز . فما أَن سمع عبد العزيز بتفاصيل القضية بصورة واضحة قنع بها حتى أَمر بحرمان القاتل من الهبة ، وتحويلها إِلى أَسرة المغدور به ، وهو لا يريد من وراء ذلك جزاء ولا شكورا ، إِلا تثبيت فكرة الوفاء من أَجل الوفاء .

كتبت في الصفحات الأُولى التي مرت بنا في هذه الفقرة عبارات تشير إِلى أَنني كدت أَتخلى عن صراحتي التي فطرت عليها ، وفعلاً أَنهيت كتابتي في حديثي عن القصة التي أَشرت إِليها بأَن عبد العزيز فعل الوفاء من أَجل الوفاء ، بدون أَن أَكون صريحاً في ذكر الأَسماء ذات الصلة المباشرة بالقصة .

إِلا أَنني بعد أَن عدت إِلى قراءة مسودة ما كتبته عدت اليها بمسمع من أَحد الأَصدقاء كنت تحدثت إِليه وأَخبرته صراحة بأَسماء الرجال ذوي الصلة المباشرة بهذه القصة ،

قال هذا الصديق ناصحاً : (لماذا لا تكون صريحاً بكتابتك كما هي عادتك التي سرت عليها وعرفت فيها ، فتذكر اسم صاحب الصلة بهذه القصة بصورة واضحة) ؟ !

وعندما تدبرت قول ناصحي بإمعان وجدت أَنه محق ومصيب من شتى الوجوه :

أَولاً ـ إنَّ الآمر بقتل المقتول توفي والمنفذ للفعل قد توفي ، والظرف الذي جرت فيه القصة مضى له ربع قرن ، ولهذا لم يبق ما يوجب كتمان القصة .

ثانياً ـ كل موضوع لا يكون الكاتب صريحاً فيه سيعتري القاريء الشك في صحته .

ثالثاً ـ ما من كتابة كتبتها في هذا السفر أَو في غيره إلا وأَجد راحة في ضميري إذا أَيدت كتابتي بالأَدلة الصادقة الصريحة التي لا يرقى الشك إلى صحتها .

رابعاً ـ أَجد ما يقلقني ويؤنب ضميري فيما إذا تخليت عن صراحتي التي فطرني الله عليها ـ وقديماً قال أَبو الطيب المتنبي :

وأَسرع مفعول فعلتَ تغيُّـــراً
تَكَلُّفُ شيء في طباعك ضِدُّهُ

ومن أَجل ذلك أُراني ملزماً بأَن أَمضي في صراحتي ، ذاكراً اسم المقتول الذي ترتكز أَعمدة هذه الحادثة عليه ، إنه المرحوم العقيد محمد ناصر قائد سلاح الطيران السوري إبان مصرعه ، واسرته التي فعل معها عبد العزيز الوفاء من أَجل الوفاء باقية في دمشق .

ولا أَظن أَنني بعد ذلك واريت شيئاً من الصراحة التي لا أَرى ما يدعو إلى كتمان الحقيقة التي فعل عبد العزيز الوفاء مع أَهلها من أَجل الوفاء ليس إلاَّ .



العقيد محمد ناصر

عبد العزيز يجازي بالوفاء بدل العقاب من تآمر عليه

اعتدى على الملك عبد العزيز ثلاثة من اليمنيين وكان الاعتداء داخل الحرم المكي الشريف في صباح اليوم العاشر من ذي الحجة ١٣٥٣ هـ وذلك حينما كان الملك يطوف طواف الإفاضة ، وأوشك الغادرون أن ينفذوا (مخططهم الإجرامي) لولا عناية الله ثم يقظة أحد حراس الملك وهو عبد الله البرقاوي ـ الذي أردى المعتدي الأول قتيلاً عندما جاء شاهراً مُدْيَتَهُ ، وبمصرع الأول فشل الإثنان الآخران حيث لقيا أيضاً نفس المصير الذي لقيه عميدهم ، وبعد أن أُجري التحقيق ثبت أن فيهم جنديين من الجيش المتوكلي اليماني ، بل أحدهما برتبة (نقيب) واسم هذا النقيب علي حزام الحاضري [1] . وقد اثبتت الأدلة والقرائن انهم

(١) « ملوك آل سعود » لمؤلفه الأمير سعود بن هذلول (ص ٢٢٨) .

مبعوثون بعلمٍ وتحريض من إمام اليمن يحيى حميد الدين ، وابنه ولي العهد أَحمد سيف الإسلام ، ويقال : إن الذي تولى إعداد المؤامرة الابن أَحمد ، وذلك بعد الحرب التي وقعت بين الملك عبد العزيز وبين الإمام يحيى .

ولما كان يوجد في مدينة الرياض عدد من اليمانيين الذين هاجروا من اليمن إلى المملكة بدافع عقيدة دينية بتأْثير دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب وبتأْثير دعوة عدد من العلماء السلفيين اليمانيين كالشوكاني صاحب « نيل الأَوطار » والصنعاني صاحب « سبل السلام » وغيرهما فقد تأَثر بالدعوة عدد من اليمانيين وخاصة الذين يعتنقون المذهب الزيدي ، وقد لقي هؤلاء من الملك عبد العزيز كل ترحيب واحترام – وتأْمين معيشتهم وسكنهم ، وهجرة هؤلاء ذات طابع ديني لا تمت إلى الأَهداف والغايات السياسية بأَية صلة بدليل أَن هجرتهم هذه قبل أَن يقع الخلاف بين الإمام يحيى وبين الملك عبد العزيز بأَكثر من عشر سنوات .

كان يرأَس أُولئك المهاجرين شخص يدعى يحيى بن



الامام يحيى حميد الدين

حِزام ، ويحيى هذا حافظ للقرآن عن ظهر قلب ، ومن أَورع وأَتقى وأَشجع من عرفت من رفاقه اليمانيين ، وقد كان بيني وبين يحيى صداقة أَصبحت مع مرور الأَيام راسخة الجذور ، ويؤكد يحيى الذي لا يعتريني أَدنى شك في صحة روايته فيقول : بعد أَن اعتدى الغادرون اليمانيون على الملك عبد العزيز ، جئت إلى عبد العزيز وأَسررت له بأَنه يوجد لديَّ شبان من اليمن لديهم الاستعداد بأَن يقوموا بمغامرة يقتلون بها ولي العهد أَحمد سيف الإسلام جزاء وفاقاً لما دبره من الغدر في العمل الذي قام به اليمنيون .

كان جواب الملك عبد العزيز ليحيى هو الآتي : إذا عاملنا أَحد بالغدر ونكث العهد ، عاملناه نحن بالوفاء بالعهد والعفو ، أَما الغدر فإن عاقبته وخيمة ، على أَهله طال الزمان أَو قصر .

لست أَدري لو أَن عملية الغدر هذه اتخذت مع بعض الحكام – ومن ثم جاء إلى هذا الحاكم شخص يريد أَن ينتقم له بدافع ديني ؟ .. ترى هل يرفض هذا الحاكم

الرغبة التي أبداها الشيخ يحيى ، ويعفو ويتسامح ، ويجازي المعتدي على حياته بالفعل الجميل بل وبالوفاء ، كالذي فعله عبد العزيز كما سيأتي ذكره ؟ ... أم أنه سيرحب بهذه الفكرة ، ويراها أمنية سقطت عليه من السماء ؟ ...

سنترك هذا الحكم للتاريخ الذي عشناه وشاهدناه ..

هكذا عامل عبد العزيز المتآمر عليه :

بعد مضي ثلاثة عشر عاماً قام عبد الله بن الوزير وقسم من أسرة الإمام يحيى وقتلوا الإمام يحيى ، واستولوا على صنعاء عاصمة الحكم ، والجيش اليماني بقائده جمال جميل مؤيد لابن الوزير ، وولي عهد الإمام يحيى – سيف الإسلام أحمد طيب الذكر ... كان في مدينة (تعز) – معزولاً عن العاصمة التي استولى عليها قتلة والده ، فما كان منه إلا أن ذهب يستنجد الملك عبد العزيز ، مثيراً نخوته ببيت الشعر الذي استشهد به الخليفة عثمان بن عفان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما وهو :

فإن كنتُ مأكولاً فكن أَنت آكلي
وإلا فأَدركني ولَمَّا أُمَزَّقِ



الملك عبد العزيز

فأسرع عبد العزيز مستجيباً لنخوته ، ومقابلاً العمل الأَول بالوفاء والعفو ، وأَجابه بجملة تعبر عن استجابته له عندما استنجد به ، كما أَن عبد العزيز أَراد بتلك الكلمة أَن يقوي عزمه ، وان يثبته ، لئلا تخور عزيمته حيث قال له : عِشْ كريماً أَو مُتْ شُجاعاً .. وأَتبع هذه الكلمة تأْييداً له ، وعدم اعتراف بابن الوزير الذي آلت حركته إلى الفشل .

وهكذا كان عبد العزيز يعامل بالحسنى والعفو من أَساءَ إليه ، بل يعامل بالوفاءْ من أَراد أَن يغدر به ، ويترفّع عن الغدر شيمة منه ، وهو قادر أَن يفعل وأَن ينفذ الفكرة التي أَتى إليه بها الشيخ يحيى بن حزام .

المعروف لذوي الوفاء كالبذرة الطيبة في الأرض الخصبة

إذا كان الله سبحانه وتعالى خلق البشر من تراب ، فإن هذا التراب جزء لا يتجزأ من الأَرض التي منها ما هو خصب فإذا بذرت فيه الحبة أَنبتت سبعمائة حبة .

ومنها الأَرض الحجرية التي لا تثمر فيها الشجرة إلا ثمراً محدوداً ، ومنها الأَرض السبخة التي تظل البذرة في مكانها فلا تنبت،ولا يمكن أَن تثمر فيها الشجرة ولو سالت فيها الأَنهار .

وإذا كان كل إنسان كريم الأَرومة جم المروءة لا بد أَن يكون من النوع الأَول ، فإن عبد العزيز يكون في طليعة هذا القسم ، متربعاً فوق قمة القمة فيه في حالة قلّ أَن يشاركه في المنزلة إلا الأَفذاذ القلة ، النادر وجودهم من ذوي الوفاء .

هذا الوصف قاله الشيخ أَحمد الجابر بحق الملك عبد العزيز ،فمتى كان ذلك ؟ ... وبأَية مناسبة ؟ ...

كان ذلك في عام **١٩٣٩** في عهد الملك غازي بن فيصل ملك العراق ، وكانت المناسبة في الفترة التي أَذاع فيها جهاز الإعلام في بغداد خبراً مفاده : ان الكويت قسم من العراق ، وخبر كهذا يعبر تعبيراً واضحاً ان الملك غازي ينوي أَن يغزو الكويت ، ويضمه إلى العراق ...

لجأَ حاكم الكويت الشيخ أَحمد الجابر إلى الملك عبد العزيز مستنجداً به ، ولما كان العراق إذ ذاك خاضعاً للنفوذ البريطاني ، فقد أَراد الملك عبد العزيز أَن يذهب في مخاطبته إلى الاصل ، ويترك الفرع ، ولذلك اتصل فوراً بحكومة (لندن) منذراً ومحذراً ، ومؤكداً بإنذاره وتحذيره أَنه إذا لم يتراجع الملك غازي عن تهديده ويسحب انذاره للكويت بإذاعة تصدر من نفس بغداد ، تنسخ ما قالته إذاعته الأُولى فإنه في مدة قريبة سيجهز القوات السعودية إلى الكويت لنجدة الشيخ أَحمد الجابر وستكون بريطانيا مسؤولة عن نتائج ما سيحدث .

ولما كانت حكومة (لندن) تدرك أن عبد العزيز إذا قال فعل ، فقد أوعزت للملك غازي بأن يسحب إنذاره ، ففعل غازي ما أُمِرَ به حالاً .

على إثرها جاءت من الشيخ أحمد الجابر رسالة تحمل شكره للملك عبد العزيز تتضمن المعاني الآتية : شكراً لك يا أخي عبد العزيز لقد أثبت لنا ولجيلنا وللأجيال أن زرع الجميل كزرع القمح إذا بذر في أرض خصبة تنتج الحبة مائة حبة [1] الخ ...

نموذج من الأسلوب الكريم الذي يملك به عبد العزيز قلوب أعدائه :

لا أكره جملة من الجمل التي توضع في (الإطارات) وتعلق في الأندية والمجالس كما أكره الجملة السيئة المعنى وهي (اتّقِ شَرَّ من أحسنت إليه) .

لا أذكر أنني رأيت هذه الجملة في منزل ما إلا ونصحت صاحب المنزل بأن يبعدها ويضع من أقوال الحكماء ، وحكم الشعراء ما هو معاكس لمعناها . إذ هذا المعني يقول : لا تصنع الفضل ، ولا تفعل الحسنى ، وإذا فعلت شيئاً

(١) كتاب « أسود آل سعود » تأليف ابراهيم بن خُمَيِّس ص ٤٢ .

من ذلك فكن على حذر من أن يسيء إليك الذي صنعت به المعروف ، وأسديت له الفضل ، وبذلت إليه الإحسان) .

وهكذا فمن يقول هذه الكلمة لا يعدو أن يكون مسرفاً في البخل ، ومفطوراً على اللؤم ، ويريد أن يجعل من بخله ولؤمه مبرراً ، أو أنه يقيس الرجال على خلقه الدنيء ، وطبعه الوضيع الرديء ، وفقاً للمثل القائل: (كل يرى الناس بعين طبعه) .

أذكر أنني رأيت هذه الجملة في منزل صديق في بيروت زرته بصحبة الشيخ حمد الجاسر ، ورأيت هذه الجملة معلقة في مجلسه الذي كنا حمد الجاسر وأنا جالسين فيه بانتظار صاحبه - فهممت بإزالتها وإنما نهاني الشيخ حمد عن ذلك - وقال : لا تفعل حتى تأتي بجملة تحمل معنى حكمة تنسخ ما في هذا (الاطار)(١) .

---

(١) عندما نهاني الشيخ حمد عن إزالة (البرواز) وأمرني بأن آتي بحكمة معاكسة لها لم يكن ذلك لأنه يرى ما نهى عنه وأمرني به أنه هو الرأي الصائب الحسن وإنما ذلك رغبة في إشباع غريزته التي فطرت على الغرام باصدار أوامره ونواهيه على أصدقائه ، أعان الله صديقه الحميم القديم الشيخ عبدالله الخيال - أنظر ما ذكرته عن الشيخ حمد الجاسر في مؤلفي (فهد بن سعد ومعرفة ثلاثين عاماً) ج ٢ - ص (٤٤٩) .

وفعلاً لم أُزل (الإطار) حتى ذهبت وجئت لصاحب المنزل بآخر يحمل بيت الشعر الذي أَوردته في فصل العفو الذي يلي هذا الفصل ـ وهو قول الشاعر :

أَحْسِنْ إلى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسَانُ

والحقيقة التي لا جدل فيها أَن المعروف لا يذهب سُدىً ، حتى لو قدر أَن من أُسدي إليه المعروف كان رجلاً لا يستحقه ، بل حتى لو كان شريراً لئيماً ، فإن المعروف يكسر من حِدَّةِ شَرِّه ، ويقلل من أَثر لؤمه ، بدلاً من أَن يكون شره أَو لؤمه كاملين فإن المعروف سوف يقلِّلهما ، هذا اذا كان من البشر الذين فطرت نفوسهم على الشر واللؤم .

أَلَذُّ شَيْءٍ فِي الحَيَاةِ مُكَافَأَةُ أَهْلِ الوَفَاءِ بِوَفَاءٍ مُمَاثِلٍ

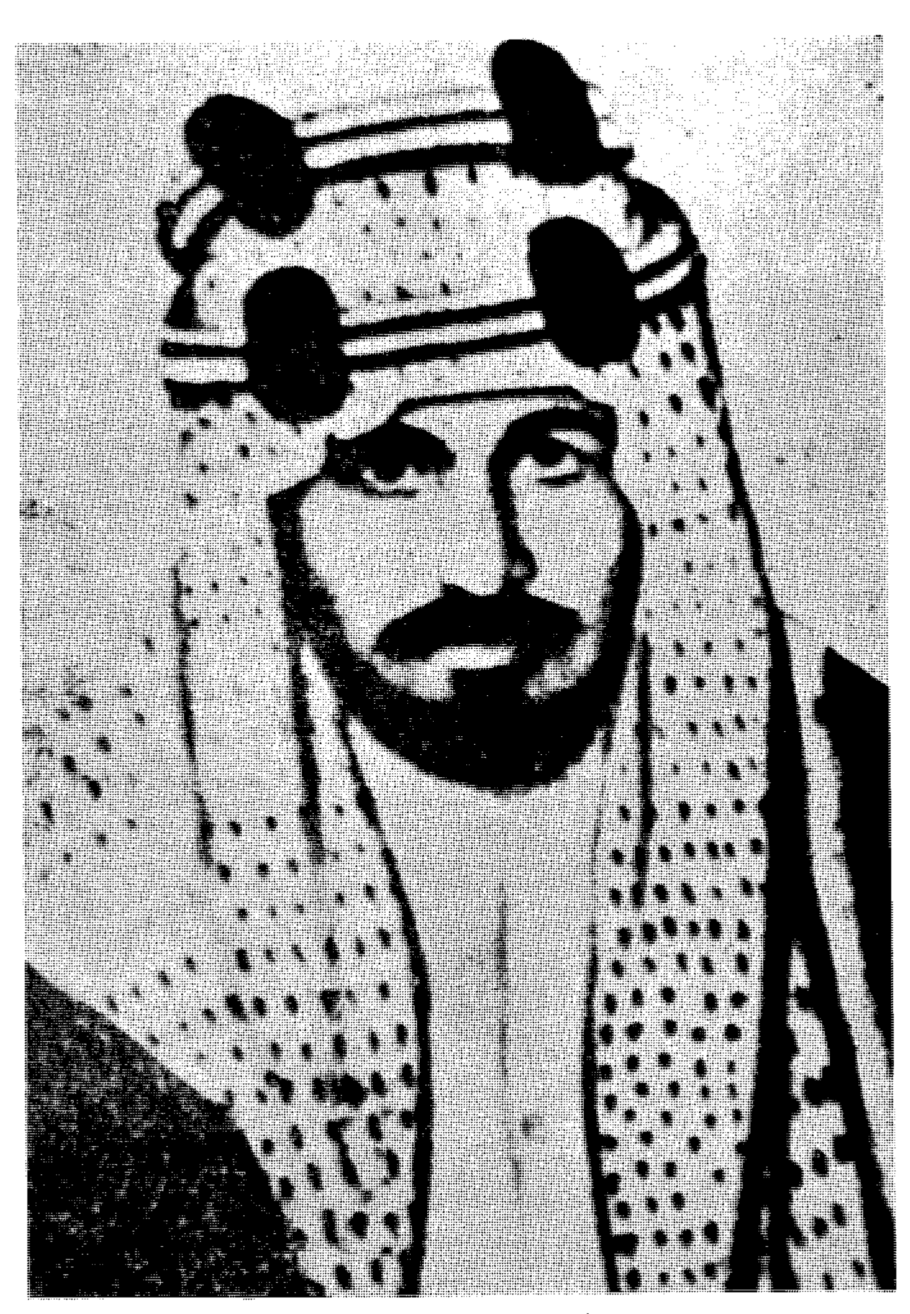
وُجِّه إلى أَعرابي من كرام قومه هذان السؤالان :

ما هو أَلَذُّ شيء في الحياة ؟ ... فقال : صنع المعروف في أَعناق الكرام ..

فقيل له : وما الذي يكون أَلَذَّ من ذلك ؟ ... فقال : مكافأَة أَهل الوفاء بوفاء مماثل ..

وهذا ما فعله عبد العزيز مع الشيخ عبد الرحيم القناوي من أَهل قرية (الزَّيمة) التي تقع شرقي مكة بحوالي عشرين كيلو متراً ، لقد وفق القناوي لأَن يضع الفضل في أَعناق قوم من أَشرف رجال العرب وأَكثرهم شهامة وكرماً فمتى كان ذلك ؟ ...

كان في الفترة التي يحكم فيها الحرمين الملك حسين شريف مكة ، في ذلك العهد جاء الأَمير محمد بن عبد



الأمير محمد بن عبد الرحمن

الرحمن المشهور بسخائه وشجاعته ، والذي كان الساعد الأَيمن لأَخيه الملك عبد العزيز ، جاء من الرياض قاصداً تأْدية فريضة الحج ، ولما كان الشريف حسين في نفسه ما فيها على السعوديين – كما سلف ذكره – فقد بعث الأَمير محمد رسولاً من عنده يخبره بأَنه قادم لتأْدية فريضة الحج ، وما أَن وصل رسول الأَمير إلى الملك حسين حتى كان الرد منه جافًّا ، فبدلاً من أَن يستقبله مقابلة العربي الكريم لضيوفه الكرام أَمر أَن يُسلِّم هو ورفاقه أَسلحتهم ، وأَن يبقوا حتى يؤدوا فريضة الحج عزَّلاً

ولما كان قصد الأَمير محمد أَداء فريضة الحج فقد نفذ أَمر الملك حسين ، وترك سلاحه عند الشيخ عبد الرحيم القناوي صاحب قرية (الزِّيمة) فما كان من السيد القناوي إلا أَن استقبل الأَمير محمداً بكل عناية ورعاية ، وأَقام له ضيافة كما هو خلق كل عربي يفد عليه كريم قوم – كالأَمير محمد بن عبد الرحمن – وعندما عاد الأَمير محمد من مكة قاصداً بلاده الرياض ، أَقام له القناوي أَيضاً ضيافة تليق بمكانته .

فعل القناوي ما فعله من الكرم بدون أن يعلم أو يخطر له ببال أن هذا الأمير الذي فعل معه الجميل سوف يأتي هو وأخوه فاتحَيْنِ لمكة وحاكمين للحجاز وتهامة وعسير مضافاً إلى حكمهما لنجد ، لم يتصور القناوي ذلك عندما فعل مع الأمير ما فعل وانما كان القناوي كريماً من أجل الكرم ليس إلا .

لَذَّةُ الوَفَاءِ لِذَوِي المَعرُوفِ لَاتَعدِلهَالَذَّة

سبق أن أوردت الجملة المنسوبة إلى الأعرابي ، التي تشير معانيها إلى أن لذة الوفاء في مكافأة ذوي المعروف لا تعدلها أية لذة في الحياة ، وهذه اللذة يتمتع بها عبد العزيز دائماً ، وفي كثير من المناسبات التي يجازي بها ذوي المعروف على معروفهم ، كما فعل ذلك ، عندما جاء إلى قرية (الزيمة) بعد فتح الحجاز وكان أخوه محمد قد ذكر له الجميل الذي لقيه من صاحب القرية عبد الرحيم القناوي ، عندئذ أمر له الملك عبد العزيز بمبلغ قدره خمسة وعشرون الف ريال[1] ، وهذا المبلغ ظل باقياً يدفع

(١) « الملك العادل » لمؤلفه الشيخ عبد الحميد الخطيب . ج ٢ ص ٧٥ .

كل عام ، وعلينا أَن ندرك أَن مبلغاً كهذا في ذلك الوقت يعادل الآن عشرات الملايين من الريالات .

ومما هو جدير بالذكر أَن عبد الرحيم القناوي ظل مستمراً على كرمه وضيافته للملك عبد العزيز كلما مَرَّ بقريته قاصداً مكة ، وذلك عندما كان عبد العزيز يذهب إلى مكة بواسطة السيارات ، وحينما جاءت الطائرات وأصبح الملك يذهب بها إلى الحجاز طلب القناوي من عبد العزيز أَن يبعث إليه ضيافته في مكة كما كان يقدمها له في قريته ، فقبل الملك كرم الرجل ، كما لقي القناوي من عبد العزيز كرماً ووفاء يليقان بمكافأَة ذوي الفضل والكرم والوفاء على وفائهم [1] .

(١) « الملك العادل » ج٢ ص ٧٥ .

إلتزم عبد العزيز بالوفاء ضمناً لا شرطاً

إذا كان الوفاء بالعهد من شيم العرب الموروثة ، فإن وفاء عبد العزيز بعهده يعتبر في ذروة شيمه المتعددة الجوانب .

يحدثني الشيخ محمد بن عبد العزيز بن عبد اللطيف آل الشيخ المعروف بـ (الصحابي) أن عبد العزيز عندما تمَّ له فتح مدينة حائل عاصمة إمارة آل رشيد قال له الأَمير تركي بن عبد الله بقي واحدة يا عبد العزيز . مشيراً بذلك إلى هدم سور مدينة حائل ، وتركي بإشارته هذه يقصد أَن يهدم عبد العزيز سور حائل كما فعل أَمير حائل محمد بن رشيد عندما استولى على مدينة الرياض . فهدم سورها .

يقول الصحابي : إن الإمام عبد العزيز أَجاب قائلاً :

(أنا لست ممن ينقض العهد) !

والإمام عبد العزيز يشير بكلمته هذه إلى المعاهدة التي تمت بينه ، وبين الشيخ إبراهيم السالم السبهان بواسطة حمد الشويعر [1] .

والمعاهدة التي رويتها عن إبراهيم السالم السبهان نفسه لم يكن فيها أَية كلمة صريحة تثبت أَو تنفي ترك سور أَو هدمه إلا أَن فيها معاني تشير ضمناً إلى حفظ كرامة أَهل البلاد وسلامتهم ، المحسن منهم والمسيء .

وهكذا نجد عبد العزيز ، يتقيد بهذه الإشارة الضمنية معتبراً أَن هدم سور البلاد ربما يسيء إلى كرامة أَهلها فتحاشى ذلك كرماً منه ووفاء جعله يقف بعهده عند هذه الإشارة العابرة ، علماً بأَنه لو هدم سور البلاد لم يجد من يعتب عليه ، سَيْراً على المبدإ القائل : المعاملة بالمثل .

ومما تجدر الإشارة إليه أَن سور حائل ما ان رحل عبد العزيز من البلد حتى انهدم أَكثره نتيجة للسيل الغزير الذي هطل على المدينة .

---

(١) أجريت هذه المعاهدة بدون علم أمير البلاد محمد الطلال .

الفصل التاسع

عَفوُ المَلِكِ عَبْدِ العَزِيزْ



يكاد يكون العفو من أَبرز صفات عبد العزيز ، هذا إذا لم يكن هو الصفة البارزة فيه ، وقد سبق أَن كتبت مقالا في إحدى الصحف المحلية ذكرت فيه ما يشير إلى أَن أبرز السجايا التي عرفت عن الملك عبد العزيز سجية العفو ، وأَسندت فيما ذكرته عن هذا الشأن إلى الشيوخ الذين عاصروا الملك عبد العزيز وخصصت بالذات الأَمير الفارس سلمان بن محمد آل سعود ، والفارس الثاني سلطان الطلال الجبر ، ومما هو جدير بالإشارة أَنهما متفقان في الرأْي على أَن لعبد العزيز جوانب من الْمُثُلِ والشيم لا يستطيع الإنسان أَن يفضل أَو يقدم واحدة منها على الأُخرى إلا أَنني عندما أَكثرت إلحاحي عليهما كان الجواب منهما جميعاً يؤكد ان السجية البارزة في أَخلاق عبد العزيز هي العفو عند المقدرة .



الأمير الفارس سلمان بن محمد آل سعود وبجانبه المؤلف

الاحسان بدل العقاب

مما لا ريب فيه أَن العفو من شيم الكرام ، كما أَنه في الوقت ذاته يملك الحرَّ الكريم ويَسْتَرِقُّهُ ، ولهذا نرى أَبا الطيب المتنبي يقول :

وما قتل الأَحرارَ كالعفو عنهم
ومنْ لك بالحُرِّ الذي يحفظ اليدا؟!

وإذا كان العفو يملك الأَحرار ، فإِن الإِحسان يملك القلوب أَيضاً ، ولذلك نجد الشاعر العربي يقول :

أَحسِنْ إلى الناس تَستعبدْ قلوبهمُ
فطالما استعبدَ الإِنسانَ إِحْسَانُ

فاذا اجتمع العفو والإِحسان في آن واحد فإِن مسديهما يملك بهما قلب من يعفو عنه ويحسن إليه ، و من شيم عبد العزيز أَنه إذا عفا أَتبع عفوه إحساناً ، وهذا ما حصل

من عبد العزيز مع مَشَلِّ التِّمْيَاط الشمَّري ، الذي نزح عن المملكة العربية السعودية ، وذهب إلى العراق غاضباً ، - لاجئاً سياسيًّا - وكانت المعاهدات المبرمة بين الحكومة السعودية وحكومة العراق تقضي بأَن الملتجيء بينهما ينبغي أَن يسلم لحكومته .

وعن طريق هذه المعاهدة ذهب الملك عبد العزيز يطالب حكومة العراق بتسليم الشيخ مشل التمياط ، فتريثت حكومة العراق في بداية الأَمر تريثاً تصورمنه الشيخ التمياط أَنه بات في حصن منيع ، ولذلك ذهب فأَرسل للملك عبد العزيز رسالة يوضح فيها أَسباب التجائه الذي يزعم أَنه كان بسبب ظلم ناله من أَحد رجال عبد العزيز الذين يقومون بحفظ أَحد المراكز القريبة من الحدود العراقية ، ولم يقف مَشَلٌّ في رسالته هذه على ما ذكره من الظلم الذي ناله - أَو إبداء اعتذاره ، وإنما جاء بجملة يفهم من معناها أَنه نزح عن البلاد غير آسف .

أَما الملك عبد العزيز فإنه استعمل جميع وسائل الشدة التي جعلت حكومة العراق تسلمه لجنوده حتى جاؤا به

أسيراً لا يعلم ماذا سيكون مصيره .

وعندما وصل مدينة الرياض مخفوراً بصحبة الجنود ، أَمر عبد العزيز الجنود أَن يأْتوا به إليه في قصره في (الْمُرَبَّعِ) فذهب به الجنود إلى حيث أَمرهم عبد العزيز ، وعندما شاهد مَشَلٌّ عَبْدَ العزيز ، ودنا منه على ما يقول الرواة – في تلك اللحظة – أَراد أَن يعبر عن طلبه العفو بطريقة من طرق الخضوع ، ولكن عبد العزيز هشَّ له وابتسم في وجهه ، وأَبدى له جانب الرقة والتسامح والعفو ، ليس ذلك فحسب ، بل أَغدق عليه الهبات ، وقرَّر له مرتباً يجري له من تلك الأَيام إلى يومنا هذا .

وهكذا ملك عبد العزيز قلب مَشَلٍّ لا بعفوه فحسب بل بفضله عليه ، وبهباته التي ينعم بها عليه،من ذلك اليوم إلى كتابة هذه الأَسطر ، على اعتبار أَن مشلاًّ لا زال حيًّا رافلاً برغد من العيش ، بفضل أَريحية عبد العزيز وسخائه وكرم أَخلاقه .

ومما تجدر الإشارة إليه أَن الملك فيصلا – رحمه الله – ترك كل هبة شهرية أَو سنوية أَمر بهـا والده المغفور له تركها تجري كما أَمر بها عبد العزيز .



الشيخ مشل بن برغش التمياط ، رئيس عشيره التومان من شمر

الذي أوردته في السياق وما سمعته من الرواة ، كان في تلك الفترة التي نزح فيها مشلٌ إلى العراق ، وقد التقيت بالشيخ مشل في مدينة الرياض في ٧ـ٣ـ١٣٩٥ (٢٠ـ٣ـ١٩٧٥) التقيت به في الوقت الذي كنت سودت هذه الكتابة ، وقد سألته عن أسباب نزوحه إلى العراق ، وعن الصورة التي اتخذتها معه حكومة العراق في تسليمه للحكومة السعودية وكان سؤالي له في منزل ابن عمه بندر التمياط فذهب يحدثني بوضوح عن أسباب نزوحه للعراق مؤكداً أن أحد رجال الحكومة الذين يرأسون أحد المراكز أساء التصرف معه .

والواقع أن ما سمعته من الشيخ مشلّ صاحب هذه القصة لا يختلف من حيث الجوهر عما جاء في كتابتي هذه إلا في الرواية التي نقلتها عن الرواة القائلة أنه عندما دخل على الملك عبد العزيز في مجلسه أراد أن يعبر عن طلبه العفو ـ أي يَحْبُو حَبْواً ـ كما يفعل المسرفون في فعل الجريمة ، وأن الملك عبد العزيز هشَّ له ولان جانبه ،

الأَمر الذي جعل يَشلّا يمتنع عما أَراد أَن يقوم به ، هذه الرواية نفاها مشلٌّ مؤكداً أَنه منذ أَن استسلم لجنود الملك عبد العزيز وهو محاط بالعناية والحفاوة والإِكرام ، ولم ير من أَولئك الجنود أَية بادرة توحي بأَدنى ريبة أَو أَقل خوف يخشاه من الملك عبد العزيز ، وزاد مشل بتأْكيده الحفاوة التي شاهدها من جنود عبد العزيز قائلاً : إِن سليمان الشنيفي رئيس مركز (لِينَة) المتاخمة للحدود العراقية قال له : إِن الملك عبد العزيز أَوصانا بإِكرامك والحفاوة بك .

* * *

البون الشاسع بين من يرى اللذّة بالعفو وبين من يرى اللذّة بالعقاب

عندما اعتدى نفر من (الإخوان المسلمين) على الرئيس الراحل جمال عبد الناصر واعتقل المعتدون ، كما اعتقل من يزعم الادِّعاء أَنهم مخططون للغدر وكان من بين المعتقلين الشيخ عبد القادر عودة الذي أَجرت له محكمة الثورة برئاسة الصاغ جمال سالم محاكمة عسكرية ثم أَصدرت حكمها على عودة بالاعدام ، ولما لم يبق إلا التنفيذ بعث الملك سعود مستشاره الشيخ خالد القرقني ليشفع للشيخ عبد القادر ، على أَن يترك مؤبداً في السجن ـ وأَن لا ينفذ فيه حكم الإِعدام نظراً لمنزلته العلمية .

ويحدثني الشيخ خالد بأَن جمال عبد الناصر وجه إليه العبارة الآتية : ترى لو أَن عبد القادر عودة مواطن سعودي ، ثم قام بمؤامرة يستهدف بها قتل الملك سعود

أَو قتل الملك عبد العزيز فهل يقبل أَحدهما الوجاهة أَو الشفاعة ؟

يقول الشيخ خالد : إنني أَجبت عبد الناصر بقولي : نعم يقبل ذلك بل سوف يعفو عنه بأَكثر من ذلك .سيوليه منصباً ويكون بعمله هذا قتله بعفوه ، وأَسَرَهُ بفضله ... .

فرد عليه عبد الناصر بقوله : (مِنْ جِدٍّ تتكلم ؟) فأَجابه القرقني قائلاً : نعم أَتكلم من جدٍّ ، وأُقدم لك دليلاً واقعياً ، وهذا الدليل هو أَن شخصاً دبّر مؤامرة لقتل الملك عبد العزيز فعفا عبد العزيز عنه ، وليس ذلك فقط بل ولاه منصباً من أَعلى مناصب الدولة .

فقال عبد الناصر : متى كان ذلك ومن هو ذلك الشخص ؟ ...

فاجابه الشيخ خالد : كان ذلك في السنين الأُولى من فتح الملك عبد العزيز للحجاز وأَما الشخص المدبر للمؤامرة فهو الشيخ محمد سرور الصبان الذي هو الآن وزير للمالية ومستشار للملك سعود ، والذي يقوم بأَعمال وزارة الخارجية في غياب الأَمير فيصل ، ويقوم بأَعمال وزارة



الرئيس جمال عبد الناصر وعن يمينه الشيخ خالد القرقني وعن يساره الشيخ عبدالله الفضل سفير المملكة في القاهرة
ــ رحم الله الجميع ــ

الداخلية في غياب وزيرها .

عندما حدثني الشيخ خالد بهذه القصة قلت : ليت عبد الناصر أَخذ عبرة وموعظة ودرساً من الحكمة التي اتخذها عبد العزيز بعفوه وتسامحه ، وأَخلاقه ، وشيمه التي ملك بها قلوب أَعدائه ، وغسل من قلوبهم الضغينة إلى الأَبد ، كما سلف ذكره . ترى لو عفا عبد الناصر عن العلامة الشيخ عبد القادر عودة والعالم فرغلي ، ومن بعدهما العالم سيد قطب ـ وهو قادر أَن يعفو ويتسامح لأَنه في موقف القوة ، والزعامة العربية التي لا يدانيه أَحد بها في العالم العربي ـ لو فعل ذلك عبد الناصر أَما كانَ ملك قلوب أَولئك العلماء ؟ وجعلهم هم وأَتباعهم من (الإخوان المسلمين) جنداً له ، بدلاً من أَن يتركهم أَعداء له يتربصون به الدوائر ، حتى بات يطارده شبحهم حتى مماته ؟ !

ويكون شتان بين عبد العزيز الذي يرى بالعفو لذة وبين عبد الناصر الذي يرى بالانتقام لذة .

تعليق وتحليل

حينما اطلع أَحد الإِخوان على قصة العفو الذي عامل به الملك عبد العزيز الشيخ محمد سرور الصبان ـ قال هذا الأَخ : إن محمد سرور رجل محبوب عند عدد وافر من رجال الشعب ، الذين وضع في أَعناقهم منة وفضلاً لذلك لا استسيغ أَن تورد قصته هذه فأَجبت هذا الأَخ الناصح بمايلي :

اولا ـ لو أَظن أَن ذكر هذه القصة يسيء إلى الشيخ محمد سرور لما كنت أَوردتها ، وذلك لأَنني ممن يعترف له بالفضل ، لا لأَنه من عباقرة الرجال الأَفذاذ الأَفاضل فحسب ، بل لأَنني من المدينين بفضله ومنته عليَّ ، واعترافي بفضله ذكرته في كتابي « من الطفولة إلى الكهولة » وهو الكتاب الذي لا زال مهيأً للطبع .



الشيخ محمد بن سرور الصبان

ثانياً - ذكرت في الفصل السابق فقرة جاءت بعنوان: (سياسة عبد العزيز للرجال) وتحت هذا العنوان ذكرت الجمل الآتية :

(عندما أَقول الرجال فإنني أَعني الذين برزوا على مسرح الأَحداث وأَخص الذين ناصبوه العِداء ، ويتوقع أَنهم قابلون للبروز) ومضيت وقلت جملة أَشرت فيها إلى أَن سياسة عبد العزيز لمثل هذا النوع من الرجال تقتضي أَن يبذل ما في وسعه في أَن يكرمهم ويملك لبَّهم بمنصب مهم يسنده إليهم إن كانوا ممن يصلح لإِدارة الأَعمال السياسية أَو الإِدارية الخ ...

وهذا يعني أَنني لم أُسِيء إلى محمد سرور ، بل أَعطيته ما يستحقه من الإِحترام ، إذ لو لم يكن من الرجال الذين يقع عليهم هذا الوصف لما احترمه الملك عبد العزيز ، وأَسند إليه مناصب لها أَهميتها في دولته .

ثالثاً - ما دمت سبق أَن أَلفت أَربعة أَجزاء « من شيم العرب » وها أَنذا أُدوِّن ما استطعت العثور عليه « من شيم عبد العزيز » شأْني شأْن أَي مؤرخ أَخذ على عاتقه

أن يكتب في أي جانب من جوانب التاريخ ، سواء التاريخ العسكري أو التاريخ السياسي أو التاريخ الاجتماعي ،أو تاريخ الأدب والقيم و (الشيم) التي كنت ولا زلت أكتب في مجالها وما دام أن أي مؤرخ يكتب في فن من هذه الفنون ، يجب عليه أن يكون صادقاً في كتابته ، أميناً في روايته ، عادلاً ومنصفاً في عرضه للأحداث ، شجاعاً شجاعة أدبية تجعله يطبق الحكمة التي نقلها ابن القيم وهي : (العمل من أجل الناس شِرْكٌ ، وترك العمل من أجل الناس رياء) - أقول ما دام هذا ما يؤمن به كاتب هذه الأسطر ، فان ما أورده ذلك الناصح لن أتقيد به .

رابعاً - حتى ولو فرضنا أن مُحِبِّي المغفور له الشيخ محمد سرور تصوروا خطأً أنني أسأت في حقه ، فإنهم هم وغيرهم سوف يتراجعون عن تصورهم هذا الخاطيء ، ما دمت سوف لا أُغضي طرفي أو أتجاهل عفو الملك عبد العزيز الذي أسداه وشمل به والدي مصدر وجودي في هذه الحياة - بعد الله سبحانه - .

وما دمت أكتب الحقيقة للحقيقة ، فيما أحاطت به

معرفتي « من شيم عبد العزيز » فإنني أعترف أن عبد العزيز شمل والدي بعفوه ، كما شمل العدد الوافر الذين وقعوا بين يديه وعفا عنهم وهو قادر بأن يضرب أعناقهم ولا يجدون من يسأله أو يحاسبه إلا خوفه من الله ومحاسبة ضميره اليقظ .

وشهد شاهد « من أهلها »

جاء والدي من بغداد قاصداً بلاده حائل ، وعندما دنا منها وجدها مطوقة من قبل جيش عبد العزيز ، تطويقاً ليس بإمكانه الوصول إليها ، كما ليس بإمكانه العودة إلى المكان الذي جاء منه ، فحاول العودة إلى بغداد ، ولكنه ما إستطاع حيث وقع بيد (الإخوان) جنود عبد العزيز ، فناله منهم نصيب من اللكم حتى أُدْمِي أنفه ، ولكنه يرى أن أي عقاب يأتيه من عبد العزيز أو رجاله – دون القتل – يراه هَيِّناً ، ليس من أجل أن الحرب قائمة على أشد ما يكون بين عبد العزيز وبين أهل حائل فحسب ، بل لأن (مارقا) [1] كان يحمل بريداً سياسياً موجهاً

(١) مارق هو الاسم الصحيح لوالدي، وإنما أبدلت القاف بالكاف – هروباً=

لأمير حائل ابن رشيد ، من الحاكم السياسي في العراق وقتها (المستر كوكس) وكان (مارق) مدة اقامته في بغداد نازلاً في ضيافة كوكس ، والبريد الموجه منه لابن رشيد عبارة عن بداية ارتباط سياسي جديد ليكون عربوناً في توثيق أواصر الصلة بين بريطانيا وبين ابن رشيد [1] ، وهي بادرة سيرحب بها ابن رشيد ، على أساس أنه لم يكن له مع أية دولة صلة خاصة بعدما هزمت حليفته السلطنة العثمانية في الحرب العالمية الأُولى ، فأصبح أي واحد من أهل حائل يدرك أن إمارة بلاده كالسفينة في وسط البحر المتلاطم الأمواج ، فما على المواطن من حائل

= من التشاؤم ، لأن مارقاً اسم مشؤوم ، والواقع انني ندمت على هذا التبديل لأني لو تركت الاسم على ما هو عليه . لكان على الأقل يرمز إلى معنى (نافذ) أو (ماضٍ) – أما التبديل بالكاف مجرداً من أي معنى – فإن الإسم يصبح كأنه اسم أوروبي ، وهذه الحقيقة أشرت اليها في مؤلفي « من شيم العرب » ج ٢ ص ٣٣٤ .

(١) بين يدينا دليل واضح المعالم ، يؤكد تأكيداً قاطعاً بأنه لو تأخر عبد العزيز عن فتح مدينة حائل – لبات ابن رشيد مضطراً أن يحذو حذو مبارك الصباح الذي أدخل بلاده تحت الحماية البريطانية خوفاً من احتلال ابن رشيد لها ، وهذا على ما يبدو هو الذي جعل عبد العزيز يبادر بغزو حائل وفتحهـــا .

إلا أَن يتشبث بـأَية وسيلة محاولاً نجاة بلاده من الخطر الذي يهدد البلاد من غزو عبد العزيز ، وهو أَكبر خطر في نظر ذلك الجيل من ذوي العقلية القبلية ، والمفهوم الجاهلي .

وهكذا كان (مارق) لا يتجاوز تفكيره تفكير غيره من أَهل حائل ، يفهم أَنه ما دام أَن أَهل بلاده لا يستطيعون الوقوف أَمام الخطر الذي يهددهم من الغزو الداخلي فلا بد والحالة هذه أَن يحاول هو أَو أَي واحد منهم ان يتمسك بـأَوهى الأَسباب الخارجية التي يتصور أَنها تنجي إمارة بلاده من نهايتها المحتومة على يد ابن سعود .

وما دام أَن (مارقا) يحمل بريداً لابن رشيد من ممثل بريطانيا ، بل ما دام أَن عبد العزيز يفهم صلة مارق بِ (كوكوس) كما تحدث بذلك في مناسبة ما ـ يبعد بنا ذكرها عما نحن بصدده ـ ، كما يفهم تفاني مارق وإِخلاصه ووفاءه لآل رشيد ، فإِن عبد العزيز والحالة هذه لا يؤخذ عليه أَدنى لائمة فيما إِذا ضرب عنق مارق ، عندما وقع بين يديه على الحالة التي جاءه بها رجاله مخفوراً لا قوة له ولا ناصر .

صدق من قال : إن عبد العزيز أقرب للعفو من العقاب :

لما كان عبد العزيز ـ كما أَسلفت ـ محاصراً لمدينة حائل حصاراً محيطاً بسورها عن كثب ، فإن خبر وقوع (مارق) في قبضة الإمام عبد العزيز بات معلوماً عند أَهل البلاد فالرواية التي نقلت هذا الخبر ثابتة ، وذلك عن طريق شخص يدعى كتاب بن غصن الذي جاء هو ومارق من العراق ومن سورية ، إلا أَن كِتَاباً هذا استطاع أَن يهرب ويصل إلى حائل لكونه بدويًّا من قبيلة شمَّر ، والبدوي بطبيعته يعرف كيف يتخلل من المنافذ ، ويتقن أُسلوب الهرب ، أَكثر من الحضري (مارق) .

كان الخبر الذي جاء به كتاب بن غصن يؤكد أَن مارقاً وقع في قبضة ابن سعود ، ولكنه لا يثبت ولا ينفي الإشاعة التي راجت والقائلة أَن عبد العزيز بن سعود عندما ظفر بمارق شدخ رأْسه .

وكان هناك شخص من (أَخويا) علي الحمود[1]

(١) أي من رجال علي ـ أو ما يقال لهم (الحاشية) أو (الفداوية) ـ اشتقاق من اسم الفدائيين ، إذ كل شخص من أمثال علي الحمود السبهان ـ الذي لا زال على قيد الحياة يكون في حاشيته رجال شجعان مثل ابن حجيلان .

السبهان يقال له ابراهيم بن حُجَيلان ـ من آل أَبو العليان زعماء مدينة بريد سابقاً ـ هذا الشخص دار جدال بينه وبين شخص آخر من رفاقه ، فرفيقه يؤكد أَن (مارقا) قتله عبد العزيز ، بينما ابن حُجيلان يقول : إذا كان مارق قتله جنود عبد العزيز قبل أَن يصل إليه فهذا أَمر لا أَستطيع نَفْيَه ، أَما أَن يصل مارق إلى عبد العزيز ويقتله فهذا شيء لا صحة له .

لا أَستطيع أَنْ أُؤكد بأَن ابن حجيلان راهن مجادله ، كما لا أَستطيع أَن أَنفي أَن الخلاف بين الحجيلان ورفيقه مجرد جدال لا رهان فيه ، وإنما الذي أَستطيع تأْكيده هو أَنه لو كان بينهما رهان لكان ابن حُجيلان هو الكاسب للرهان كما أَنني أَعتقد جازماً أَن أَيَّ شخص يراهن على عبد العزيز بين عقابه لأَكبرِ وأَعظمِ من يسيء إليه وبين عفوه وتسامحه بل وإحسانه إلى ذلك العدو والمسيء فإن الأَخير سوف يكسب الرهان ، خاصة بعد أَن تجاوز عبد العزيز سنَّ الفتوة ، أَو بعبارة أَوضح : بعد أَن وثق من رسوخ دعائم حكمه .

عندما يكون الراوي مرهوب الجانب

تمهيد

الذي قرأ مصطلح الحديث ـ واطلع على مؤلفاته ، يتضح له الأمر جليًّا عن الصور التي تعددت بها أنواع الحديث كالصحيح والمرفوع والموقوف والمرسل والمعتل ، والضعيف ، والمضطرب ، والمدلس ... الخ .

وهذا الأخير الذي يكاد يكون من أكثر الأحاديث صعوبة على المحقق ـ وهو ما يقول عنه رواة الحديث أنه قل أن نجا من الوقوع فيه أي راو من رواة الحديث وأكثر ما يكون التدليس في الأحاديث التي لا تتعلق بالأحكام ، بل المتعلقة بالترغيب والترهيب ، وتعريف ذلك كما يلي :

يأتي راوي الحديث وينسب حديثه عن شخص يدعى زيد بن عمرو بن حسن ـ في الحين الذي يكون فيه

شخصان يحمل كل واحد منهما هذا الاسم ويكون أحدهما ذائع الصيت وموضع ثقة في مجتمعه ، بينما الثاني عكس الأَول ، خامل الذكر وروايته مشكوك بصحتها ، ومن هنا يأْتي المدلس في حديثه ، فيرويه – عن زيد بن عمرو بن حسن – بدون أَن يأْتي بالعلامة الفارقة التي تكون مميزة بين الثقة الذائع الصيت ، وبين خامل الذكر المتهم في روايته ، والقاريء حينما يقرأُ الحديث لا يتبادر إلى ذهنه إلا أَن الراوي للحديث هو الشخص الأَول ، وهذا ما يريده المحدث المدلس ، فغايته أَن يجعل لهذا الحديث قبولاً ورواجاً ، أَما اذا جاء المحققون وكشفوا الغطاء عن هذا التدليس فإن المدلس يأْتي بحجة تنفي عنه الكذب في نقله وروايته ، فهو جاء بالاسم الثلاثي والخماسي أَيضاً والتدليس ينقسم إلى عدة أَقسام ، ولكن هذا النوع من التدليس هو أَخطر أَنواعه ، ولا يميزه إلا الراسخون علماً بفن الحديث .

والغاية من هذا التمهيد أَنه متى كانت الرواية منسوبة إلى شخص ذائع الصيت ، وموضع ثقة لدى الرأْي العام ،

أَصبحت مقبولة لدى القراء .

والقصة التي سوف أُوردها لم تكن خفية على القاريء الذي له أَدنى إلمام بتاريخ بلادنا ، وكان بإمكاني أَن أَنقلها من الأَسفار التي دونها المؤرخون عن سيرة عبد العزيز وإنما أَعرضت عن ذلك عملاً بالقاعدة التي سرت عليها ، وهي حرصي الشديد بأَن لا أَنقل أَية حادثة مما كتب ودوّن عن عبد العزيز ، ما دمت أَستطيع أَن أَجد شخصاً من الرجال الذين عرفوا الحادثة ، وإنما المشكلة التي واجهتها أَن المصدر الأَول والأَخير بل المسؤول المباشر عن تفاصيل هذه الحادثة من الرجال الذين قال عنهم حكماء الأَدب الأَوائل : بأَنهم لا يجوز أَن يُسأَلوا .

أصادق من قال: إنَّ الملوك لا يُسألون ؟

يقول المؤرخون القدامى على ما في بعض كتب الأدب : (إن الملوك لا يجوز أن يسألوا) .

أعتقد أن الأدباء يعنون بتعبيرهم هذا الملوك المتكبرين والمتعالين على شعوبهم ، والذين يرون أنفسهم أنهم من طينة غير طينة البشر ، أما الملوك الذين من أمثال عبد العزيز الذي يخاطبه قومه الذين عاصروه مخاطبة النِّدِّ للنِّدِّ بدون ألقاب ، ولا فوارق يناديه المرء باسمه قائلاً : يا عبد العزيز – كما سلف ذكره – هذا بالنسبة لعبد العزيز الذي عاصره وعاشره الجيل الذي سبقنا .

أما بالنسبة للملك فيصل الذي قدر لي بأن أكون من معاصريه – بل وممن يتصل به مباشرة وممن يعرفه عن كثب – فإنه الإنسان المتواضع الذي يملي على محدثه

الشجاعة بتواضعه وحسن استماعه لأي متحدث يحدثه ، ولو كان المتحدث نكرة خامل الذكر .

كانت الحادثة التي كنت أتطلع إلى معرفتها لا يمكن أن أقنع برواية أي راوٍ لها كقناعتي إذا كان الراوي لها الملك فيصل ، والسبب في ذلك يعود إلى أن الفيصل هو بطل القصة ، ولما كان وقته مليئاً بالأعمال . باستثناء فرصة يكون فيها المجال متسعاً لتحقيق هدفي المنشود ، وهذه الفرصة تكون وقت تناوله طعام الغداء بعد صلاة الظهر مباشرة ، أو وقت تناوله طعام العشاء بعد صلاة المغرب بمقدار نصف ساعة .

والقصة التي أعني هي معرفة الصورة التي تخلى بها الفيصل ، عن مدينة (الحُديدة) بعد أن تم له احتلالها عسكرياً .

ولقد سبق أن سألت الملك في ٢١-١٠-١٣٩٤ هـ الموافق ٥-١١-١٩٧٤ م -.سألته عن تفاصيل الهجوم الأول الذي قام به والده على أمير سرية ابن رشيد في الرياض [١] ولهذا

(١) سؤالي للملك فيصل وجوابه سيأتي في (فصل الشجاعة) الذي سيرد في الصفحات الآتية .

خجلت أَن اسأَله مرة ثانية ، لا سيما أنه لم يكن بين سؤالي إياه وبين ما أُريد أَن اسأَله عنه سوى أَيام معدودة ومحدودة لا تبلغ الشهر ، ولذلك طلبت من الأَخ معضد ابن خرصان بأَن يتولى هذا السؤال ـ ويكون ذلك أَثناء حضوري .

وبما أَن الأَخ معضدا من الرجال البدو الذين اعتادوا محادثة الملك وسؤاله عما يبدو لهم في أَيٍّ موضوع كان ـ بكل بساطة ـ فقد كانت موافقته على طلبي منسجمة وطباعه التي اعتادها ، غير أَن ظروفاً قاهرة حالت دون مجيئي للملك في الوقت الذي تم بيني وبين الأَخ معضد أَن نلتقي فيه .

لم يسعني بعد أن تأخرت عن الوعد المعين بيني وبين معضد إلا أن أقدمت على سؤالي للملك فيصل مرة ثانية - وذلك في مدينة الرياض في ٢٦-١١-١٣٩٤ الموافق ١٠-١٢-٩٧٤ م .

بدأت سؤالي بالجملة الآتية :

(يقول الأدباء : إن الملوك لا يُسألون ، ولكنكم عودتمونا بأن نسألكم كما يسأل المواطن أخاه المواطن الثاني) .

كان جالساً بيني وبين الملك أحد المواطنين من رجال البادية ، وعندما انتهيت من كلمتي هذه ، وبدأت أشرع في السؤال الذي أريد قمت من مكاني الأول ، ودنوت من الملك حتى لم يكن بينه وبيني أحد . قاصداً أن أستمع إلى حديثه عن قرب .



الملك فيصل بن عبد العزيز

كان سؤالي يتلخص في معرفة الأَوامر التي صدرت إليه من والده في تخليه عن مدينة (الحُدَيدة) كما كان سؤالي يشمل معرفة الحوار الذي جرى بينه وبين والده ، وقد أَوردت عبارة قلت فيها : إنني قرأْت ما كتبه المؤرخون عن هذه الحادثة ، ولكنني اعتدت بأَن لا أَكتفي بكتابة المؤرخين - إلا إذا تعذر عليَّ وجود المصدر الذي هو الأَصل في الحادثة ، ومضيت وقلت : لا أَعتقد أَنني أَجد مصدراً أَدرى وأَصدق من جلالتكم في عرض الصورة التي تخليتم بها عن (الحُدَيدة) .

كلام الملوك ملوك الكلام

عندما سمع الملك كلامي هذا صَمَتَ فترة كعادته ، وكدت لو لم أَعرف خلقه الهاديء الرزين أَتصوَّر بأَنه تجاهلني ، ولكنه بدأَ حديثه الذي يعتقد كل فرد من جلسائه إذا تحدث بأَن الحديث موجه إليه ، بدأَ يتحدث حديثاً عرفت عنه أُموراً ما كنت أَعرفها ، لأَنها لم تكتب لقد قال الملك : (إنه بعد أَن استولى على (الحُديدة) وصلت إليه رسائل من كثيرين من ولاة مدن اليمن ،

وصلت إليه رسالة من والي (تَعِزّ) ومن والي (حَجَّة) و من غيرهما من ذوي الحل والعقد في اليمن ممن بعثوا رسائل يعبرون بها عن استعدادهم لتسليم بلادهم واستقبالهم للفاتح المنتصر الجديد . ولكن والده أمره بأَن ينسحب من (الحديدة) فانسحب .

وعند هذه الجملة الأَخيرة ، وقف الملك فيصل ، ولما كنت حريصاً غاية الحرص على معرفة الحوار الذي جرى بينه وبين والده ، فقد أعدت السؤال قائلاً : هناك من يقول - يا جلالة الملك - بأَنك أَجبت والدك بكلمات تعبر عن شدة استيائك ، وعدم اطمئنانك لقبول الأَمر ، وأَن والدك أَجابك بكلمة حاسمة بحيث لم يسعك إلا تنفيذ الأَمر .

حينما سأَلت الملك هذا السؤال أَجاب بعد صمت قليل قائلاً : إنني قلت للوالد غفر الله له : إذا كان أَمرك بالانسحاب من أَجل قلة الرجال الذين عندي فإنه يوجد لدينا من الرجال المقاتلين الذين فيهم الكفاية ... ومضى الملك فيصل وقال : إن جواب والده له قوله : (ما هو أَنت

الذي تعلمنا الشجاعة) !

قلت : لقد سمعت أَن جلالتكم تـأَثَّر كثيراً من أمر والدكم غفر الله له ؟ ...

فقال: لقد أَصابني أَثر في القلب وظل الدكتور الخاشقجي يعطيني علاجاً فترة من الوقت) .

إنتهى جواب الملك فيصل ..

وهناك رواية فحواها أَن الفيصل عندما وردت إليه الأَوامر من والده بـأَن ينسحب ، أَراد أَن يتجاهل هذه الأَوامر ، ويمضي في احتلال اليمن ، ولا سيما وأَبواب اليمن كلها مفتوحة أَمامه ، ولم يوقفه عن تنفيذ مخططه هذا إلا خوفه من أَن يقال : إن هذا العمل خطة أَوحى بها إليه والده ليتظاهر عبد العزيز بعدم رضاه ، بينما هو موافق سِرًّا على احتلال اليمن .

وَمِنْ بِلَادِ ٱلغَرْبِ حجّة

بتاريخ ٢١ـ٦ـ١٣٩٤ الموافق ١١ـ٧ـ١٩٧٤ اجتمعت فوق متن الطائرة السعودية بالأَخ الاستاذ حسين قاضي ، وكلانا متوجه من الرياض إلى جدة ـ وكان في حوزتي مسودة عن مؤلفي « من شيم عبد العزيز » وجرى الحديث بيني وبين الأَخ حسين حول مواد الكتاب فقال الاستاذ حسين : إنه عندما كان يدرس القانون الدولي في أَمريكا في جامعة (كاليفورنيا) القى عليهم استاذ مادة المعاهدات الدراسية ـ عبارة قال فيها : إن من أَعظم آثار جلالة الملك عبد العزيز الذي كان مشهوراً بشجاعته وفتوحاته أَنه بعد إستيلائه ودخول جيوشه مدينة (الحديدة) وتوغله في اليمن تخلى عن مكاسبه العسكرية شيمة منه وعفـواً وتسامحاً ، وهذا العمل لم يسبق أَحد عبد العزيز فيه في التاريخ العالمي .

اللذّة في معرفة الحقيقة تسمو على أيّ تعبٍ في سبيلها

إذا كانت الأَشياء المادية تعرف قيمتها بأَثمانها كما ورد في المثل القائل : (يستدل على السلع بأَثمانها) فإن الأُمور الأَدبية لها في نفس الساعي إلى حفظها وتخليدها وقع حسن وأَثر طيب بقدر المجهود الذي يبذله المعتني بها ، ولذلك أَجد شعوري بالغبطة يزيد ويقل لا بقدر أَهمية الحادثة الأَدبية التي أَحظى بها وإنما بقدر المجهود والمساعي التي تمكنني من العثور عليها .

ولهذا كان شعوري بالغبطة لا مزيد عليه حينما شددت الرحال من دمشق إلى الكويت من أَجل التحقيق عن حادثتين (من شيم عبد العزيز) رواهما لنا الصديق الأَديب سعود الغانم بن جمران الْعَجْمِي ، وكان أَهمية هاتين الحادثتين أَني لم أَسمع بهما من قبل .



سعود بن غانم بن جمران العجمي والمؤلف

ولما كان المصدر المباشر للقصتين رجلين يقيمان في الكويت ، فقد عقدت العزيمة على أن أسافر إليهما لأنقلها عنهما بدون واسطة ، وقد ركبت الطائرة من دمشق متجهاً إلى الكويت في ١٦ جمادى الآخرة ١٣٩٤ (٦ تموز ١٩٧٤ م) وفي ذلك اليوم حاولت الاتصال هاتفياً بالصديق الأخ سعود بن جمران ـ ولكنني لم أحظ بلقائه إلا ليلاً ، كما لم تتح لي الفرصة بالاجتماع براوي القصة التي نحن بصدد الكتابة عنها إلا في اليوم الثالث من وصولي الكويت . وقد ذهبت بصحبة الأخ سعود الجمران إلى منزل الراوي الذي يبعد مقدار خمسة كيلومترات عن قلب مدينة الكويت وراوي القصة هو الشيخ راشد بن علي العامري من قبيلة بني هاجر ، وقد ألفيته ـ وان كان في بداية الكهولة إلا أنه مليء بالحيوية والنشاط ، وساعة رأيته شعرت كأن المعرفة بيننا لها عشرات السنين .

ما أجمل الحادثة عندي عندما انقل خبرها من مصدرها :

وبعد تبادل التحية مع الشيخ راشد قدمني له الأخ سعود قائلاً : هذا فلان جاء من الشام من أجل أن

يـاخذ عنك قصة خميس بن منيخر كما رويتها لنا حينما وفد خميس على الملك عبد العزيز .

وكان الجواب من العامري قوله : قبل أَن أُسمعكم القصة أُريد أَن يقبل فلان ضيافتي الليلة ، فـأَكبرت فيه هذه الروح العربية الأَصيلة ، وقلت : إنني قد حددت السفر على الطائرة المتجهة هذا اليوم إلى الرياض ، وسوف أُغادر الكويت بعد ساعات ، وإنما الضيافة التي أَود أَن تكرمني بها هي أَن تحدثني عن قصة خميس بن منيخر .. فقال : أَعطني وعداً أَنك ستقبل ضيافتي إذا سنحت لك الفرصة بمجيء الكويت مرة ثانية ، فوعدته بذلك ، وعندها ذهب يروي القصة بحديث طلق وشيق ، وأَعتقد أَنَّ السِّر في كون حديث ذلك الشيخ له وقع في نفسي ، لا لكونه يتحدث بطلاقة بعيدة عن الاصطناع والتكلف ، بل لأَنَّ الراوي ينقل القصة بصورة مباشرة عن أَبطالها ، وقد ذهب يحدثنا على الوجه الآتي – يقول : – بينما كانت جماعة من قبيلته (بني هاجر) يسيرون في الصحراء على رواحلهم قاصدين الملك عبد العزيز ، وإذا بشبح شخص

يبدو متجهاً نحوهم راكباً راحلته قاصداً الجهة التي يسيرون نحوها ، وما أن دنا منهم هذا الشخص حتى بدا لهم أنه قويّ الشبه بخميس بن منيخر أحد زعماء قبيلة العجمان ، وعلى الرغم من أنه كلما دنا منهم بات الشك يحل محله اليقين اتضح أن الرجل القادم هو خميس نفسه ، إلا أنهم لا يتصورون ـ ولو حُلُماً ـ أنه خميس ، لأنهم يعلمون أن خميساً مطاردٌ من قبل الملك عبد العزيز ، وهارب إلى العراق هو ومن تبعه من رجال قبيلته ، فكيف يأتي على هذا الشكل وبهذه الصورة ؟ ! إلا أنه حينما أناخ راحلته عندهم عرفوه كما يعرفون أنفسهم .

كانوا يخشون أن ينالهم عقاب بسببه ، وإذا بهم يتمنون إكراماً كاكرامه :

لم يسع أولئك الركب بعد أن عرفوا ضيفهم إلا أن استقبلوه بالتحية اللائقة بمكانته ، كشأن أي عربي يقدم على مضيفيه ، كان الموقع الذي التقى به خميس ورفاقه يسمى (السُّلَيّ) وهو يبعد عن الرياض مسافة عشرين كيلومتراً ـ اي نحو مسيرة يوم للراحلة .

بات خميس ومضيفوه تلك الليلة بدون أن يبدي

المضيفون المحذور الذي يخشونه من صحبته لهم ، في قدومهم على عبد العزيز ، كما أَن خميساً لم تَبْدُ منه أَية كلمة يطمئنهم بها عن مخاوفهم ، إلا أَنه في صباح الغد حينما تهيأُوا للذهاب إلى مدينة الرياض مال خميس إلى مضيفيه وصارحهم قائلاً : أَنا رجل مرتكب خطيئة في حق الملك عبد العزيز ، وقد جئت تاركاً أَهلي ورجال قبيلتي في العراق ، ولا أَدري ماذا أُلاقيه من عبد العزيز ، فإن عاقبني فهو على حقٍّ ، وإن عفا عني فهذا ظني به ، ولذلك لا أُريد أَن أُحرجكم بمرافقتي في الدخول على عبد العزيز ، أَنا وأَنتم معاً ، وإنما الأَفضل والأَسلم لكم أَنه متى دنونا من مدينة الرياض تتقدموني ، ومن ثم آتي بمفردي .

وما إن تكلم خميس بهذا الكلام حتى شعر رفاقه بأَنه أَزاح عنهم كابوساً كان جاثماً فوق رؤوسهم .

وهكذا نفذوا هذا الرأْي حيث تقدموا بالسلام على عبد العزيز ، وبعد فترة من جلوسهم عند الإمام جاء (المضايفي) رئيس التشريفات – إلى الإمام عبد العزيز

ليخبره بأن (خميس بن منيخير) موجود عند باب القصر ، ويطلب السلام على الإمام ، فأذن له عبد العزيز بالسلام ، وعندما دنا خميس من الملك قال : وهو يَمُدُّ يده مصافحاً : (السلام عليك يا عبد العزيز) فلم يقم له الملك خلافاً لعادته التي يقوم بها للقادم ولو كان طفلاً ، أما خميس فقد ظل مادًّا يده ، رافعاً رأسه ، متبعاً موقفه هذا بكلمة عبر بها أنه يريد السلام ، لا الاستسلام حيث قال : سلِّم عليَّ يا عبد العزيز فأنا الرجل الذي إذا صادق سَرَّ صديقه ، وإذا عادى ضَرَّ عدوه ، وما أنا مثل بعض الرجال الذين لا يسرون صديقهم ، ولا يضرون عدوهم ..

فما كان من عبد العزيز بعد هذه العبارات إلا أن تبدل وجهه المتجهم إلى انبلاج وانطلاق ، تجاه خميس وعانقه ثم أجلسه بجانبه ، وبعد ذلك أمر (رئيس التشريفات) إبراهيم بن جُمَيعة بأن ينزله بمكان لائق به ، كما وهبه بعد ذلك هبات مالية جزلة ، الأمر الذي جعل رفاقه بعدما كانوا يخشون أن ينالهم سخط من عبد العزيز بسبب صحبة خميس لهم ، أصبحوا يتمنون أنهم جاءوا

بصحبته لما شاهدوه من الحفاوة والإكرام والهبات التي وهبها عبد العزيز للشجاع الفارس ، الشيخ خميس بن منيخر ، الذي كما كان شجاعاً في المعارك الحربية ،كانت لديه شجاعة أدبية أيضاً ، وهي شجاعة مصدرها – ولا شك – ثقته بنفسه من ناحية هامة ، وثقته بعفو عبد العزيز من ناحية أهم . وهاتان الثقتان هما وحدهما اللتان جعلتاه يقف ذلك الموقف الجريء ، ويعبر عن نفسه بتلك العبارات الطافحة بالبطولة .

* * *

حادثة رويتها من مصدرها لا ممن نقلها

قرأْت ما أَورده الاستاذ خير الدين الزركلي في كتابه « شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز[1] » وقد أُعجبت بحادثة تسترعي الانتباه من الحوادث التي يجدر بي أَن أَضعها في هذا الكتاب « من شيم عبد العزيز » وفي فصل العفو بالذات . وقد أَورد الأَستاذ الزركلي العبارات الآتي نصها الحرفي : (أَملى سمو الأَمير عبد الله الفيصل على الأَستاذ صاحب مجلة « المنهل[2] » فصولاً عن جده الملك عبد العزيز الخ ... هذا وقد أَورد الأَستاذ الزركلي في مؤلفه المذكور عشرين حادثة مما نقله عن الأَستاذ الأَنصاري ، ولما لم يكن في تلك الحوادث شيء غائب عني إلا حادثة منها

---

(١) ص ٩٢٠ .

(٢) يقصد الزركلي ـ الاستاذ عبد القدوس الانصاري الأديب المشهور .

فقد طاب لي أَن أُضيفها إلى أَقرانها في (فصل العفو) .

ولما كُنت دائماً لا اكتفي بنقل الرواية من كاتبها وراويها فيما اذا كان المصدر الأَساسي الذي ينقل عنه الراوي موجوداً على قيد الحياة فقد أَرجأت كتابة الحادثة إلى أَن وصلت المملكة ، وهناك أُتيحت لي فرصة لقاء الأَمير عبد الله الفيصل في مدينة جدة بتاريخ ٢٣-٦-١٣٩٤ هـ (الموافق ١٤-٧-١٩٧٤ م) ومما لا جدل فيه انه مهما كان الناقل للحادثة ثقة لا يرقى الشك إلى صحة نقله وروايته ، فإن المؤلف يجد للحادثة جمالها وروعتها كما يجد اطمئناناً نفسياً إذا نقلها من مصدرها مباشرة بدون أَية واسطة ، بل عندما رويت الحادثة من مصدرها وجدت تكملة لها لم تكن موجودة في كتاب الاستاذ الزركلي .

وخلاصة الحادثة كما رويتها من الأَمير عبد الله الفيصل جاءت كما يلي : هناك رجل من قبيلة عتيبة يدعى تُرْكي[1] بن مَشْعان بن شُلَيْوِيح قتل شخصاً من أَبناء قبيلته ، ولاذ بالفرار مختبئاً في جبل من جبال نجد يقال له (كشب)

---

(١) تركي يكون حفيد شليويح العتيبي الشاعر والفارس المشهور .

وقد ظل سنتين متوارياً في رأس هذا الجبل دون ان تستطيع السلطة العثور عليه . ولا عجب في ذلك لأن ذلك الجبل فسيح الأرجاء وله كهوف . ومخابيء وغِيْرَانٌ وافرة ومتعددة.

مهما كان الجاني في أمان فإن شبح الجريمة يطارده :

يظل الجاني دائماً وأبداً مخلوع القلب ، مرهق الأعصاب ، لا يلذ له الغذاء ولا يطيب له الكرى ، ولا يهدأ له بال ، وعلى الرغم من أن وجود هذا المجرم في جبل كذلك الجبل يجعله في أمان من أن تناله سلطة الدولة أو يقتص منه ذوو الثأر، رغم ذلك ضاقت به الأرض بما رحبت ، وأصبح شبح جريمته يطارده في يقظته وحتى في منامه ، بل أصبح يرى أَنَّ خوفه من الخوف أثقل على حياته من الخوف الذي يخشاه فلم يكن له بُدٌّ من أن يطبق المثل الشعبي القائل : (اقرب من الخوف تأمن) .

وقد قرب الخائف فعلاً من الخوف ، ووضع نفسه بين فكي الأسد ، واثقاً أَنَّ الضرغام مهما كان جائعاً فإنه قد يبيت على الطَّوَى ليالي متتابعة دون أن يأكل لحم الميتة .

وهكذا جاء القاتل إلى الأمير عبد الله الفيصل في منزله



(الأمير عبدالله الفيصل)

كما يأْتي إليه أَي إنسان ، وقد كان الأَمير ذلك الوقت وكيلاً لوالده نائب الملك في الحجاز ، بعد أَن سلم الجاني على الأَمير طلب منه أَن يسمح له بالحديث داخل المنزل ، فأَذن له الأَمير ، وحينما اطمأَن مشعان العتيبي بأَنه دخل

في عرين الأَسد ، عندئذ صارح الأَمير بأَنه فلان الهارب من العدالة ، وهناك وجد الأَمير نفسه مُحَرَجاً بين قيامه بتنفيذ مسؤوليته بصفته حاكماً يلزمه الأَمر أَن يتخذ نحو الرجل ما تحكم به عليه العدالة والشريعة الإِسلامية ، وبين ما تفرضه عليه العادات والتقاليد العربية التي توجب حماية العربي لمن يلوذ بجواره ، ويستجير بحماه مهما عظم جرمه ، وكبرت خطيئته.

لم تدم طويلاً حيرة الأَمير في موقفه بين هذين الأَمرين ، وقد اتخذ ما يوفق بينهما ، بدون أَن يترك واحداً منهما على حساب الآخر ، وذلك أَن الأَمير حمل المجرم المستجير في سيارته وذهب به فوراً إلى منزل جده الملك عبد العزيز الذي كان يقيم في جدة ، كان الملك قد أَوى إلى غرفة نومه ، ليأْخذ راحته ، وقد أُخْبِر الملك بمجيء حفيده ، فأَذن له بالدخول ، واثقاً أَن مجيئه في هذا الوقت لا بُدَّ أَن يكون وراءه ما وراءه . فبادر الملك ابنه بقوله : (وِشْ فِيها) ؟ فقال الأَمير : أَنا مُبْتَلى وجئتك لتزيل كربتي . فقال : وما هو الأَمر ؟ .... فذهب عبد الله يعرض الأَمر بكامله كما حصل.

عدل وعفو في آن واحد :

فقال الملك العبارة الآتي نصها : (شِفْ يا ولد نحن ما أَعزنا الله إلا بإقامة الحدود الشرعية ، والشرع لو حكم على أيّ إنسان كبير ما تأَخرنا عن تنفيذ الحكم فيه ، ولكن أَنت إستدع أَولياء المقتول ، وأَعطهم من المال ، واطلبهم أَن يسقطوا حقّ القصاص ، وإذا سقط حقُّ القصاص عنه ، فانا عافٍ عن الحق العام ، وإذا لم يرضوا سَلِّمْهُ لهم يقتلوه[1]) .

لم يكن أَمام الأَمير عبد الله الآن إلا أَن يبذل كل ما لديه من الجهد لينجي رقبة مستجيره من سيف أَولياء المقتول ، الذين لو علموا أَن القاتل موجود في منزل الأَمير عبد الله ، ثم علموا بالحديث الذي قاله الملك لحفيده ، لما رضوا أَن يسقطوا حقهم ، طمعاً بالديّة مهما كان المال مغرياً ووافراً ، لأَن قبول البدويّ للمال ثمناً لدم القتيل يعتبر عيباً كبيراً في التقاليد المأْلوفة الموروثة .

ولذلك نجد الأَمير عبد الله استعمل مع أَولياء المقتول

---

(١) الجمل التي بين قوسين نقلتها بنصها الحرفي من المصدر السالف الذكر .

مختلف الوسائل ، وشتى الأَسباب التي أَنقذ بها رأْس مستجيره من ناحية ، وأَرضى بها أَولياء المقتول من ناحية ثانية ؛ ومن ناحية ثالثة وصل إلى الجمع بين العدل الذي قامت عليه دعائم حكم عبد العزيز وبين العفو الذي كان من أَبرز شيم موحِّدِ جزيرة العرب .

والوسائل التي التمسها الأَمير بحنكته – هي :

أَولا – أَنه دعا أَولياء المقتول ، ووصل إلى إقناعهم بما تظاهر به من أَن الحكومة عجزت من أَن تستولي على القاتل المتواري في جبل (كشب) .

ثانياً – أَقنعهم أَيضاً بأَنه ما دامت الحكومة قد عجزت عن اعتقال القاتل فإنهم أَيضاً أَعجز من أَن يظفروا به .

ثالثاً – عرض الأَمير رأْيه بأَن يقبلوا الدية وأَن يدفع لهم من المال ما يرضيهم .

رابعاً – طلب الأَمير من أَولياء المقتول أَن يعتبروا تنازلهم عن القصاص استجابة لرغبته ، وجميلاً منهم يعترف به لهم ، فلم يسع أَولياء القتيل إلا أَن استجابوا لطلب الأَمير وقبلوا الدية ، فدفع لهم الأَمير من المال المبلغ الذي أَرضاهم به . وأَطلق القاتل وهكذا تم الوفاق بين العدل والعفو معاً .



الملك عبد العزيز

كَانَ الأمَل في عِقابِهِ محتومًا فحَلّ محلّه العفو

كان ذلك في عام ١٣٦٠ هـ عندما وقع شجار بين أَفراد من جنود الحكومة ، وبين شخص يدعى مُجَرِّي العتيبي ، وقد انتهى ذلك الشجار بقتل أَحد رجال الحكومة على يد أَحد أَبناء مجرِّي ، الأَمر الذي إضطر القاتل ووالده إلى أَن يلوذا بالفرار قاصدين النجاة بأَنفسهما من عقاب القصاص الذي لا مفرَّ لهما منه .

حالما بلغ الملك عبد العزيز النبأَ بقتل الجندي عمم فوراً برقيات إلى جميع رؤساءِ مراكز الحدود شرقيها وغربيها ، جنوبها وشمالها ، بلَّغَ كلَّ رئيسٍ مركزٍ من قبلهِ بأَن يبعث (دوريات) تقوم بالبحث في جميع الأَمكنة التي يتوقَّع وجودهما فيها .

ولما كان الهارب من المملكة في أَغلب الأَحيان يتجه إلى

شمال الحدود ، معتقداً بأَن ذلك أَضمن لسلامته ليندس بين قبائل العراق ، فقد انتشرت (الدوريات) في الحدود المتاخمة للعراق ، بصورة تنخل الأَرض نخلاً ، تترقب الهارب بالمرصاد ، بحيث لو كان الهارب طيراً لما وسعه أَن ينجو من قبضة هذه الدوريات ، التي طوقت تلك الفيافي حتى أَنها باتت كأَنها سور من الحديد .

ولم يخطيء حدس تلك الدوريات حيث وجدت الشيخ مجرّي وابنه على وشك أَن يقطعا الحدود الشمالية للحكومة السعودية ، وأَن يصلا حدود العراق .

حينما التقى الطرفان الهاربان ورجال الحكومة جرى بينهما مقاومة عنيفة ، انتهت بقتل الابن واعتقال والده .

كان الملك إذ ذاك مخيماً في مرابع الرياض . في موقع يقال له (روضة التِّنْهات) خارجاً للقنص والاستجمام كعادته في موسم الربيع ، حيث يكون منظر الصحراء رائعاً ، وعندما تزدهر الأَرض بمختلف أَنواع العشب الطافح بنوار الأُقحوان وزهور البسباس والبروق والحوذان

وصنوف النباتات التي تنفث أزهارها عبيراً يعبق كالمسك .

كان في حكم المؤكد أن قتل الشيخ مُجرِّي سينفَّذ على اعتبار أنه المحرض لابنه على قتل جندي الحكومة ، وإلا لماذا هرب فيما لو لم يكن محرضاً أو مسهماً في الجريمة ، - أي مشترك في القتل - والحديث النبوي الشريف صريح في حكمه بمثل هذه الأُمور إذ يقول : « لو اجتمع أَهل صنعاء على قتل رجل واحد لقتلوا جميعاً » أَو ما هو قريب من هذا المعنى .

عندما جيء بمجرّي مكبلاً بالحديد ، ولم يبق أَمامه إلا كلمة يفوه بها الملك عبد العزيز ليحز الجلاد عنقه ، في تلك اللحظة أَنزل الله الرحمة في قلب الملك حيث انحرف إلى الرجال الذين معه في السيارة . وقال : ماذا تظنون أَني فاعل بهذا الرجل ؟ ..

فتولى الجواب الشيخ مطلق بن الجبعاء وقال : (إن عاقبته فإنما تعاقبه بحقٍّ ، وإن عفوت عنه فأَنت المعروف بالعفو) .

فقال عبد العزيز : بل عفوت عنه . ثم أَمر بأَن تعاد

إليه إبله التي أُخذت ، كما أَمر وزير المال بأَن يدفع الدية لأَولياء المقتول .

نجا من براثن الأسد وافترسته الذئاب :

كان مجرّي يشعر كأَنه خُلق من جديد ، حينما نجا من سيف الجلاد بتلك الأُعجوبة التي تشبه المعجزة .

ولا عجب فيما إذا تصور مُجَرّي نفسه بأَنه أَقوى من أَن يصرعه الموت بكل سهولة ، ما دام أَنه وصل إلى حافة القبر ثم نجا من ذلك المصير الأَسود القاضي على حياته .

إلا أَن حدسه بطول أَجله كان خاطئاً ، وذلك أَن حظه السيّء لم يلبث بعد أَن وصل أَهله بأَن ذهب للفلاة بمفرده ، وفي حالة كان فيها أَعزل من السلاح هاجمته الذئاب الجائعة فافترسته .

وهكذا نجده نجا من براثن الأَسد ، ولكنه لم ينج من إفتراس الذئاب ، ومن خلال هذه العبرة نجد الشجاع دائماً وأَبداً أَكثر إيماناً بقضاء الله وقدره من الجبان ، لماذا ؟ لأَن الشجاع حينما ينظر إلى عبرة كهذه يزداد إيماناً بأَن (الحذر لا ينجي من القدر) وأَن الأَجل بيد الله .

أما الجبان فإنه يظل في خوف دائم من الموت . وفي وَجَل مستمر بصورة تجعل وهمه هذا يجرعه سكرات الموت بين كل ساعة وساعة .

ولذلك نجد المثل العربي يقول : (الشجاع يموت مرة واحدة ، أما الجبان فإنه في كل يوم يموت مائة مرة) ولهذا نجد محمود سامي البارودي يقول :

عَلاَمَ يعيش المرء في الدهر خاملاً ؟ !
أيفرح بالدنيا بيوم يَعُدُّهُ ؟ !
ومن خاف ذلَّ الموت كانتْ حياتُه
أضرُّ عليه من حُمَام يَؤُدُّهُ

هكذا خُلق العربيّ الكريمْ
إذا انتصَرَ على خصْمِهِ

أي قلب يحمل الحقد والانتقام لا يمكن أن يطول أجل سيادته على قومه ، وإن سادهم بقوة البارود والسيف .. فإنها سيادة لا تحمد عقباها سينجم عنها رد الفعل عليه وإلا على ذريته من بعده .

والرجال الذين لا يتم لهم النصر إلا بالسيف والعنف نهايتهم تكون كبدايتهم وكما تَدِيْن تُدَان ، أي كما أن هذا الحاكم أو ذاك تم له النصر بالسيف ولا شيء غير السيف كذلك يؤخذ بالسيف نفسه الذي سلطه على رقاب قومه بصورة خالية من الرحمة وبعيدة عن الإنسانية .

أما إذا كان هذا المنتصر عسكرياً ، عندما يتم له الفوز على عدوه ماديّاً ، يذهب لينتصر على قلبه وعواطفه معنويًّا كما سبق أن ذكرت ذلك عن الشيم

والأخلاق العربية الكريمة التي يطبقها عبد العزيز إذا وفقه الله بانتصاره على عدوه ، فإن إنتصاراً كهذا سيكتب له الخلود .

وإذا كان العربي الشجاع الشهم البعيد عن الحقد وحب الانتقام ، إذا انتصر على عدوه في الحروب ، وأصابه بجرح ما ، يسعى في معالجته إلى أن يتم له الشفاء ومن ثم يطلقه حُرًّا ، جاعلاً له الاختيار في أحد الأمرين :

١ ـ إما أن يعلن السلم والأخوة لعدوه الذي أصابه ، ويكون فيما بعد بمنزلة الصديق الوفي .

٢ ـ وإما أن يعود ليحاربه ويطلب منازلته من جديد .

كذلك كان الملك عبد العزيز عندما وقعت معركة (السَّبَلة) بينه وبين فيصل الدويش ، وتم النصر لعبد العزيز وجيء بالدَّويش محمولاً على النعش لا حول له ولا طول .

كأنه أخ شفيق أو والد رحيم :

لم يعلم عبد العزيز عن مجيء الدويش إلا بعد أن وصل إلى مخيَّمه ، فبادر بزيارته فوراً ، وبما أن الملك عبد العزيز لا تخلو ثيابه من دهن الورد ، والطيب العبق ،



فيصل بن سلطان الدويش

فقد أَمر بـأَن يؤتى له بثياب من ثيابه المغسولة التي لم يكن فيها رائحة عطرة .

لماذا فعل ذلك عبد العزيز ؟ لقد فعله رأْفة ورحمة بالجريح لئلا يلتهب جرحه من رائحة العطور .

والعادة المعروفة في بلادنا أَن المصاب بجرح ، بمجرد ما يشم رائحة العطور فإن جرحه يلتهب التهاباً قد يودي بحياة الجريح ، إلى درجة يروى عن بعض الحاقدين على جريح ما ، أَنه إذا أَراد القضاء على الجريح يدهن راحته بدهن المسك أَو الريحان ثم يذهب إلى الجريح بنية ظاهرها عيادته بينما حقيقتها التشفي من الجريح بل قتله ، وقد يلتهب الجرح ويلاقي الجريح حتفه ، هذا ما يفعله الحاقدون .

ولكن الملك عبد العزيز أَبعد ما يكون عن أُسلوب كهذا ، لأَنه بعيد عن الحقد والانتقام ، ويدفع السيِّئة بالحسنة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . حتى إذا تعذَّر عليه سبيل العفو والإحسان والحفاوة والإكرام لهذا الشخص

أَو ذاك – ولم يُفِدْ فيه إلا العقاب سلك هذا السبيل حيث لا بُدَّ مِمَّا لَيْس منه بُدٌّ .

أخطاء متكررة يقابلها عفو وإحسان :

ذكر السيد عبد الحميد الخطيب في كتابه « الملك العادل » ما نصُّه :

(لقد نكث السادة الأَدارسة عهدهم مع جلالة الملك – يقصد عبد العزيز – مرتين الأُولى بإِيعاز من (حزب الأَحرار الحجازي[1]) ، فاضطروا إلى الفرار إلى اليمن ،

---

(١) ج ٢ ص ٧٥ .

(١) حزب الأحرار تألف في ١٣٥٠ هـ بإيعاز وتمويل من ملك الأردن عبد الله ابن الحسين وذلك عندما كان أميراً ، وكان غاية الأمير عبد الله اليائسة أن يؤلف حزباً من المواطنين الحجازيين ليقوموا بمناهضة الملك عبد العزيز ، وكان ذلك الحزب ورجاله ومؤسسه معاً أشبه بقول الشاعر :

كَنَاطِحٍ صخرةً يوماً لِيُوْهِنَهَا
فلم يَضِرْهَا وأوهى قرنَه الوَعِلُ

وقد انتهى هذا الحزب بالصورة السلبية التي ابتدأ بها ، وذلك في محرم عام ١٣٥٤ حيث تم حله – حالما علم اعضاؤه الحجازيون أن الملك عبد العزيز أصدر عفوه عنهم في ١٠ شوال ١٣٥٣ – ولم يكن بين صدور العفو وبين حل الحزب سوى شهرين فقط ، وعمر الحزب كله ثلاث سنين (المؤلف) .

وطلب لهم سيادة الإمام العفو عنهم فعفا عنهم ، وطلب لهم رواتب ومخصصات شهرية ، فلم يضنّ عليهم جلالته بذلك ، ثم نكثوا عهدهم مرة أُخرى بانحيازهم إلى جانب سيادة الإمام ضد الملك ، فما كان من الملك إلا أن وجه جام غضبه على إمام اليمن ، حتى أكرهه على الالتجاء إلى العالم الإسلامي ، طالباً الوساطة فجعل جلالة الملك من أهم شروط الصلح تسليم الأَدارسة ، وأَرغمت اليمن على تسليمهم ، وسلموا فعلاً إلى سمو الأَمير فيصل في (الحُدَيدة) في ٢٢ صفر سنة ١٣٥١ وهم بين الرجاء واليأس ، وما إن رأَوا من سمو الأَمير الإكرام والحفاوة حتى بادر السيد الحسن الادريسي برفع برقية إلى جلالة الملك ، هذا نصها :

جلالة الملك المعظم عبد العزيز ، أَيده الله .

شملنا إحسان واعتناء صاحب السمو نجلكم الموفق في الحط والترحال ، إلى أَن وصلنا الحديدة في يومنا هذا ، الساعة العاشرة ، فنشكركم على حلمكم وحسن مكارمكم والسلام عليكم .

فتفضل جلالته فطيب خاطره بعد كل ما مضى بالبرقية الآتية :

الأخ السيد الحسن الإدريسي ـ الحديدة .

الحمد لله على وصولكم بالسلامة ، تفهم ـ بارك الله فيك ـ أن هذه الامور التي جرت بتقدير الباري ثم بأسباب أعدائكم ، وإلا فنحن إن شاء الله كما تخبرون لكم عاجلاً وآجلاً ، والأمور التي فاتت لا شَكَّ أنها قضاء وقدر ، وأنتم كونوا مطمئنين الخاطر ، على أننا ما نتغير عليكم ، وأنتم إن شاء الله ما ترون إلا ما يسرُّكم في جميع الحالات ، حالكم حالنا والله يوفقكم .

عبد العزيز

ثم انه في ١٤ ربيع أول سنة ١٣٥١ هـ عندما سُلِّم إلى سمو الأمير فيصل في الحديدة أيضاً السيد عبد الوهاب الإدريسي ، وأمر بإرساله إلى مكة ، رفع إلى جلالة الملك البرقية الآتية :

جلالة والدنا الملك عبد العزيز المعظم :

وصلنا الحديدة بالسلامة ، وقد رأينا من سمو نجلكم المعظم كل إكرام ، وقابلنا أحسن مقابلة ، نسأله تعالى أن ينصركم على أعدائكم ، ويديم لنا عطفكم وشفقتكم

الأَبوية ، ونؤمل من مراحمكم أَن تصفحوا عما مضى ، لا زلتم موفقين لكل خير .

ولدكم : عبد الوهاب بن محمد الإِدريسي

فتفضل جلالته عليه بجواب يعبر أَصدق تعبير عما جبلت عليه نفس جلالته : من العفو عند المقدرة ، والحرص على الوفاء لأَصدقائه القدماء ولو أَساؤا ، وهذا نص البرقية ..

الولد عبد الوهاب الإِدريسي ــ الحديدة :

الحمد لله على وصولكم بالسلامة ، تذكر من قبل إِكرام الإِبن فيصل لكم ، فهذا واجب وحقٌّ لكم ، وتذكر أَننا نعفو عنكم عما فات بارك الله فيكم ، ما فعلتم معنا شيئاً إِنما فعلكم في أَنفسكم ، والحقيقة أَننا نأْسف على ما حصل . وأَنت ليثبت لديك ثلاثة أُمور :

الأَول ــ أَننا نشفق على كل عربي .

الثاني ــ أَن الصداقة التي بيننا وبين والدكم محمد ما ننساها لو لم يبق منكم إِلا امرأَة واحدة .

الثالث ـ لو أَنكم فاعلون جميع الأَفعال ، وتـأْتون إلى محلنا ومقامنا فإننا ننسى ما فعلتم ولا ترون منا إلا الإكرام عاجلاً وآجلاً إن شاء الله .

عبد العزيز

سَلَّم نفسه وفاءً فعفا
عنه عبد العزيز مع عظم ذنبه

ذكرت في مؤلفي الجزء الثاني « من شيم العرب [1] » قصة ناجع الصهليلي تلك وهي من أروع ما يوصف به التفاني ، وأسمى ما يعبر به عن التضحية ، وقد سافرت من جدة إلى جازان من أجل أن أتصل بناجع الصهليلي الذي عندما كتبت قصته ظننته ميّتاً ، ولشد ما دفعتني الرغبة في السفر من جدة إلى جازان لا هم لي إلا معرفة ناجع وتلقّي قصته الرائعة من مصدرها ، وقد تم لي ذلك ، وهذا ما سوف أوافي به القاريء في الجزء الخامس الذي سوف أُباشر طبعه ونشره بعد أن أنتهي من طبع كتابي هذا « من شيم عبد العزيز » .

ولست الآن بصدد ذكر قصة ناجع ، وما لحق بها من

(١) ج ٢ من ص ٥ إلى ٢٦ .

تفاصيل تدعو إلى الاعجاب ، فذلك موضح في الكتاب المذكور ، وإنما الذي يهمنا الآن هو الحديث عن الصورة التي عفا بها عبد العزيز عن ناجع ، على الرغم من أَن الرجل يقال عنه إنه قتل ستة من المواطنين السعوديين ، هذا ما يقوله عنه الذين يعرفون تفاصيل الحادثة ، وهم ثقات لا يقع الشك عندي بثقتهم ، وصدق حديثهم ، أَما ناجع نفسه فإنه حينما التقيت به ، في جازان ، بل واصطحبته معي إلى جدة قاصداً أَن أُصوره وآخذ من قصته الرائعة (فلماً سينمائياً) في تلك الفترة التي تبلغ حوالي نصف شهر قضيناها معاً في شهر ذي الحجة سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ١٩٦٨ م ، كنت في كل مناسبة أَسأَله عن قصته قاصداً إثباتها من مصدرها ، وكلما تحدث إلي عن تلك القصة أَجد أَنه لا يعترف بقتل الرجال الستة الذين يقال : إنه قتلهم ، وإنما يعترف أَنه قتل اثنين ، أَهو تواضع منه ؟ أَو أَنه أَنكر ذلك في المحاكمة ، وأَراد أَن يستمر بإنكاره ؟ أَم أَن ذلك هو الصدق ؟ ؟ والشيء الذي أُؤكده أَنني ما استطعت أَن أَحكم الحكم القاطع أَي القولين أَرجح ،

ولكن فلنسلم جدلاً أَنه لم يقتل إلا رجلين فقط ، ومع ذلك عفا عنه عبد العزيز ، الذي ربما يتساهل ويعفو ويتسامح ، بل ويحسن أَحياناً إلى المسيئين والمجرمين ، فيما إذا كان جرمهم سياسياً ، وإساءتهم محصورة في خطإٍ ارتكب منهم بحقه هو نفسه ، أَما الإساءة التي تصدر من مواطن في حق مواطن آخر فإن هذه لا يتسامح فيها عبد العزيز قطعاً ، ولا سيما إذا كانت الإساءة والإجرام من مواطن بحق الآخر وصلا إلى القتل ، فعمل كهذا لا يتساهل فيه ولن يُعْفى مرتكبه من العقاب الصارم ، الذي لا تأْخذه به لومة لائم ، اللهم إلا إذا كان القاتل لم يتعمد القتل ، أَو كان القتل دفاعاً عن النفس أَو العرض أَو المال ، وما عدا ذلك فإن القاتل عقابه القتل وفقاً لما ورد في كتاب الله العزيز (ولكم في القصاص حياة يا أُولي الأَلباب) . وقوله تعالى : (وكتبنا عليهم فيها أَنَّ النفسَ بالنفس) الآية

لماذا قتل ناجع الرجلين ؟ .. وكيف عفا عنه عبد العزيز ؟ :

الجواب على هذين السؤالين يستلزم أَن يكون لكل واحد منهما جواب منفرد ـ فلنبدأُ الآن بالإجابة على

السؤال الأَول على الوجه التالي :

قتل ناجع الرجلين في ظروف مختلفة ، وفي زمان يختلف عن الزمان الثاني ، فالأَول قتله في الفترة التي كان ناجع في الصحراء يقوم برعي الابل [1] الخاصة لعمه الذي رباه وتبناه كما يتبنى الوالد الرحيم ابنه الذي من صلبه ، وفي تلك الفترة هجم عليه خمسة فتيان مسلحون من قطاع الطرق ، من قبيلة قحطان ، التي ينتسب اليها ناجع ، فتصدى للمهاجمين وردهم على أَعقابهم ، وهنا يأْتي اختلاف الرواية بين من يقول : إنه قتل الخمسة جميعهم في بندقيته واحداً تلو واحد ، وبين روايته هو الذي يقول : إنه لم يقتل إلا واحداً ، وجرح آخر ، والبقية لم يقتل ولم يجرح منهم أَحداً بعد أَن ضمن سلامة إبل عمه من نهبهم ، هذا هو جوابنا على القسم الأَول من السؤال الأَول ـ أَما القسم الثاني منه فهو الآتي :

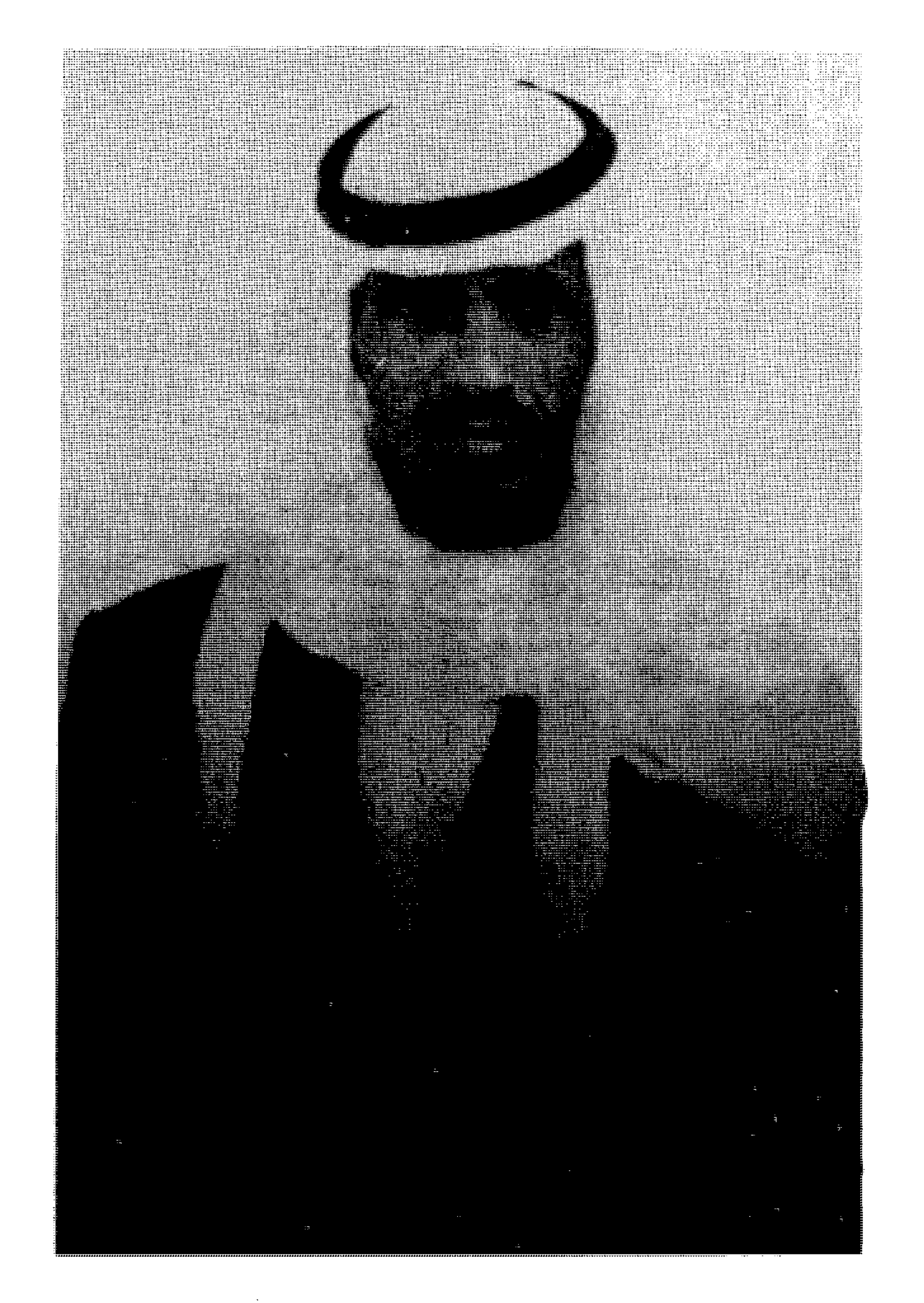
(١) ذكرت في كتابي « شيم العرب » ان ناجعاً كان يرعى الغنم عندما اعتدى عليه المعتدون ولكن عندما اجتمعت بالمذكور أكد أنه كان يرعى الإبل لا الغنم .

ذهب أَهل القتلى أَو القتيل يشكون ناجعاً إلى والي جازان ، مدعين أَن ناجعاً اعتدى عليهم ، وقتل منهم من قتل ، فأَمر والي البلاد وأَميرها وقتذاك خالد السديري جنوده بأَن يأْتوا بناجع لكي يجري معه التحقيق ، وما إن بلغ ناجعاً سؤال جنود الأَمير عنه حتى هرب وتوارى في أَحد جبال تهامة ، وأَصبح من المستحيل اعتقاله ، لذلك نصح المواطنون الأَمير السديري بأَن يعتقل أَخا ناجع بالتبني ، وأَن يشيع بأَنه سوف يقتله بدلاً عن ناجع الهارب .

وأَكد الناصحون للسديري بأَنَّ ناجعاً لا بُدَّ من أَن يفعل أَحد الأَمرين : إما أَن يقوم بمغامرة يحاول بها أَن يخرج أَخاه من السجن بالقوة ، وإما أَن يأْتي ويسلم نفسه للحكومة ليفتدي أَخاه من القتل ، فيما إذا عجز عن اخراجه من السجن .

وقد كان لرأْي هؤلاء الناصحين الأَثر الفعّال الإيجابي على اعتبار أَنهم يعرفون نفسية الشاب ناجع جيداً .

حاول ناجع على ما روى لي هو بنفسه عدة مرات أَن



ناجع الصهليلي

يهجم على السجن ويخرج أخاه المعتقل في سجن قرية يقال لها (بيش) من قرى جازان ، وعندما تعذر عليه ذلك قرر أن يسلم نفسه لِيُقْتَلَ فداءً لأخيه ، ولكنه ـ حسب ما أَكَّد لي ـ قرر أن لا يسلم نفسه للقتل حتى يقتل نائب الأمير السديري الحاكم في قرية (بيش) على اعتبار أنه هو الذي سجن أخاه ، واسم نائب السديري (راشد ابن غنيم) فتسلل أولاً في ليلة ظلماء إلى القصر الذي يبيت فيه ابن غنيم ، وعرف مداخله ، ومكان ابن غنيم الذي يريد أن ينفذ فيه الإعدام ، لكي يرى أنه أخذ ثمن حياته مقدماً ، وحينما أتقن معرفة الدخول والمكان الذي يستطيع أن يصل به إلى تنفيذ مخططه عاد في الليلة الثانية وتسلق جدار منزل ابن غنيم حتى وصل إليه فأفرغ في رأسه رصاصة أنهى بها حياته ، ثم عاد من حيث دخل ، وعندما وثق أنه أخذ ثمن حياته مقدماً جاء بمحض إرادته وسلَّم نفسه لأمير جازان خالد السديري ، ويقول لي ناجع : إن الأمير السديري لم يقنع للوهلة الأولى أنني أنا ناجع ، وأنه عندما قنع ذرفت عيناه دمعاً[1] ، ويمضي ناجع في روايته لهذه

(١) الذي ذرفت عيناه هو خالد مساعد السفير حالياً في صنعاء .

القصة الأُسطورية فيقول : إن السديري عندما قال له : أَحقيقة أَنت ناجع الصهليلي ؟ . قلت له : أَخبرني أَولاً هل أَخي حيّ أَم قتلتموه ؟ . فقال الأَمير السديري : بل إنه حي . وعند ذلك يقول ناجع إنه أَجاب السديري قائلاً : أَودُّ أَن تخرج أَخي من السجن لأَنه لا ذنب له ، لأَنني القاتل ، وأَنا ناجع الذي تسأَلون عنه .

فما كان من السديري إلا أَن أَدخل ناجعا السجن وأَخرج أَخاه ، وأَجرى له محاكمة شرعية فثبت أَن الذي قتله سابقاً كان قتله دفاعاً عن إبل عمه وعن نفسه ، وأَن الثاني الذي قتله كان قتله له فيه خطأ من ناحية ، وفيه عمد من ناحية أَخرى ، فهو خطأٌ لأَن الرجل الذي قتله لم يكن أَمير القرية ، راشد بن غنيم نفسه ، وإنما كان رجلاً من قبيلة قحطان يعمل عند ابن غنيم ، وصادف تلك الليلة أَنه نام في نفس المكان الذي ينام فيه ابن غنيم ، وهكذا أَراد ناجع قتل ابن غنيم ، وأَراد الله قتل العامل القحطاني ، كما قال الخارجي (أَردت عمرواً – يقصد عمرو بن العاص – وأَراد الله خارجة)

قتل ناجع للقحطاني خطأ من حيث أَن المقتول العامل القحطاني ، ولكنه عمد من حيث نية ناجع القتل ، وتصميمه على إرتكاب تلك الجريمة ذات الشقين ، الشق الأَول : إقدامه وتحديه لسلطة الحكومة في عزمه على تنفيذ القتل في أَمير قرية (بيش) الذي يعتبر ممثل الملك ، والأَمر الثاني : تصميمه على القتل من حيث المبدأ[١] ، بصرف النظر أَكان المقتول أَمير القرية ابن غنيم أَو عامله ، فكل منهما بحكم الشرع يعتبر الحكم في من يفعل ذلك القصاص (النفس بالنفس) يضاف إلى هذا الخمسة الذين لم يعترف ناجع إلا بقتل واحد منهم .

هذا وقد رفعت قضية ناجع إلى عبد العزيز بكل تفاصيلها ، فكان جوابه ما يلي :

الذين قتلهم سابقاً عفونا عنه بقتله لهم لأَنهم هم المعتدون على ماله ونفسه ، وقتله للرجل الثاني ، وإن كان أَراد أَن يقتل الرجل الذي يتولى إدارة حكم القرية بأَمرنا ويعتبر من رجالنا ، ولكننا عفونا عنه ما دام أَنه جاء وسلم باختياره ، وبنية أَن يفتدي أَخاه البريء ، أَما الشخص

الذي قتله خطأً فأَحيلوا أَمره إلى الحكم الشرعي ـ فإن عفا أَهل المقتول عن القاتل فذلك ، لأَنه لم يَنْوِ قتل رجلهم ، وإنما أَراد أَن يقتل رجل الحكومة ، وإن أَصروا إلا أَن ينفذ فيه حكم الشرع ، فإن الأَمر متروك لهم ـ وإن قبلوا الدية فهذا جميل وحسن .

وقد كان عفو عبد العزيز عن ناجع ، وهو الذي أَقدم عن عمد ، وأَصَرَّ على قتل ممثل الحكومة هذا العفو من موحد جزيرة العرب شجع ولاة أَمر المقتول القحطاني بأَن يعفوا عن ناجع ـ والقصة سيراها القاريء في الجزء الخامس من « شيم العرب » بشرح أَوفى وأَوضح مما ذكرته في الجزء الثاني من ذلك الكتاب كما اسلفت .

أَرجو أَن يعذرني القاريء الكريم إذا قصرت الكلام عن عفو عبد العزيز على ما ذكرته في هذه الصفحات المحدودة ، ومن المعلوم أَن لعبد العزيز في ميدان العفو مجالاً فسيحاً ، لا حصر له ، ولا سيما وهذه الصفة من أَبرز صفاته ، ومعذرتي التي أُكرر رجائي في قبولها أَنَّ ما ذكرته في بعض الفصول « من شيم عبد العزيز » التي

يستعملها في ملكه لقلوب أَعدائه وما أَشرت إليه من تحويله أَعداءه القدامى إلى رجال يحبونه لا كحبهم لأَولادهم وآبائهم وأَهلهم ، وإنما يحبونه كحبهم لأَنفسهم ، بل يحبونه أَكثر مما يحبون أَنفسهم ، كما قال له أَحد أُمراء الرشيد عبد الله المتعب ، الذي صارح الملك عبد العزيز قائلاً : يا عبد العزيز إننا عندما نسأَل الله لك طول العمر ، نرى سؤالنا هذا إنما هو لأَنفسنا قبـــل كل شيء ، فابتسم عبد العزيز ، وقال : والله إني أَدري بهذا !! .

إذن تكون فضائل عبد العزيز وشيمه التي يملك بها قلوب خصومه جزءًا لا يتجزأُ من عفوه الذي كما قال عارفوه : إن هذه السجية من أَبرز صفات موحد جزيرة العرب .

ومما لا شك فيه أَنه بهذه الشيمة الكريمة وما اشتق منها من الشيم الفاضلة استطاع أَن يوحد تلك البلاد الفسيحة الأَرجاء المترامية الأَطراف ، المسرف أَهلها بالتحيز العنصري والقبلي والإقليمي ، تحيزاً وتنافراً لا هوادة فيهما ، وذلك منذ العهد الجاهلي إلى أَن قيض الله لها ذلك العبقريَّ

العظيم ، الذي بشيمه ، وعفوه وسلامة طويته وحسن نيته وبكرمه ونبله وشهامته ، ومروءته ، وبكل معنى من معاني القيم والشيم العربية ، وفق إلى جمع شتات هذه الأَمة .

ومما لا ريب فيه أَنه لو كان في طبعه شيء من الحقد وحب الانتقام لما حقق لبلاده ولأَبنائه وأَحفاده هذه الوحدة المباركة . وهذا الأَمان الذي لا يشارك بلادَه فيه أَحد ، وتلك الكنوز التي يرفل بنعيمها المواطنون .

* * *



الفصل العاشر

شجاعة عبد العزيز

إنَّ من يتدبر شجاعة عبد العزيز ، بإمعان ، ويدرسها بعمق ، وينظر إليها بوعي وبصيرة ، يجد أَن لديه قدرة القائد العسكريِّ الموهوب ، الذي يستطيع أَن يملك جميع مواهبه ، ويسيطر عليها كيف يشاء ومثلما يريد ، بصورة لا يفقد بها أَعصابه فيأْخذه الطيش ، ويغامر مغامرة (انتحارية) يدفع فيها حياته رخيصة بلا ثمن ، كما يفعل بعض شجعان الارتجال سريعي الانفعال[1] .

ولا هو أَيضاً من النوع الذي يفقد أَعصابه ، ويتخلَّى عن خوض المعركة ، فيما إذا كان عدوه يفوقه عدداً وعُدَّةً بصورة تجعل خائر الأَعصاب من الرجال يلوذ بالفرار ،

---

(١) انظر كتاب « فهد بن سعد ومعرفة ثلاثين عاماً » ج ١ - ص ٢٤٣ للمؤلف .



الملك عبد العزيز ، ممتطياً جواده

مطلقاً ساقيه للريح ، يائساً من كسب النصر .

لا لم يكن عبد العزيز من هذا النوع ولن يكون ، ولا هو أَيضاً من النوع الأَول الطائش ، مع العلم أَنه لا يتردد لحظة واحدة من أَن يقوم بمغامرة (انتحارية) احتمال النجاح فيها جزء من مئة جزء ، ولكن علينا أَن نفهم جيداً بأَنه لا يقدم على مغامرة كهذه ، إلا عندما يرى الأَبواب كلها موصدة في وجهه ، والمسالك مزروعة أَمامه بالأَلغام ، والسبل محاطة بالمهالك والأَخطار ، وليس أَمامه أَي مجال للاختيار ، إلا أَحد السبيلين الآتيين :

إما أَن يغامر مغامرة ينال فيها عزًّا وشرفاً ورغداً من العيش يهنأُ به هو وأَبناؤه وأَحفاده ومواطنوه إلى أَن يشاء الله . وإن كانت هذه المغامرة فيها الموت محقَّقاً .

وإما أَن يقبل حياة الذل والاستكانة ، والخمول والجبن ، قانعاً من دنياه بالغذاء الهنيء ، والماء الرويّ ، والجنس الطريّ ، على الصورة نفسها التي تعيشها البهائم والأَنعام .

عندما يواجه عبد العزيز هذا الامتحان القاسي العنيف ،

نجده لا يتردد قطعاً في أَن يسلك السبيل الأَول .

أَما إِذا كان لديه مُتَّسَعٌ من الوقت يجعله في وضع يغنيه عن مغامرة مجهولة النتائج ، مبهمة المصير ، فإِنه يتصرف حينئذ بأَعصابه ، وبقواه العقلية ، ومداركه الفكرية ، كما يتصرف أَرسخ القادة العسكريين علماً بفنون الحروب الحديثة ، الذين يديرون المعارك الحربية ، وهم في الموقع الذي يسمى بلغة حروب العصر الحديث (مكانَ العمليات العسكرية) . وكما أَن قائد الجيوش أَو ما يسمى في أَيامنا هذه (رئيس الأَركان) يدير المعركة بعقله ، ويخطط لها بفكره ، واضعاً بين يديه ونصب عينيه خريطة الأَرض التي تدور رحى الحرب فوقها ، يصدر أَوامره بالتقدم والهجوم السريع ، أَو بالزحف البطيء ، أَو بالمثابرة والثبات في الخنادق ، أَو بالتراجع ، فيما إذا رأَى القائد أَن ظروف المعركة تقتضي تغيير خطته العسكرية من الهجوم إلى الدفاع أَو التراجع المنظم .

هكذا يفعل القائد الشجاع في عصرنا الراهن يتصرف

بوعي وإدراك ، كي يضمن لجنوده الخطة العسكرية التي يربح بها النصر .

وهكذا كان يفعل عبد العزيز في بعض المعارك والحروب التي تقتضيها مصلحة المعركة ، وفقاً لأساليب الحرب ، وخطط القادة العسكريين البارعين في عصرنا الراهن .

* * *

لماذا أجمع المؤرخون على حصر شجاعة عبد العزيز بفتح الرياض

كتب كثير من المؤرخين عن عبد العزيز كتابة مستفيضة من عرب وأَجانب . وهي على سبيل الحصر تسعة وسبعون كتاباً [1] خمسة وخمسون باللغة العربية ، وأَربعة وعشرون بلغات متباينة : فرنسية ، وايطالية ، وأَلمانية ، وأَردية ، وتيملية ، وأَكثر ما كتب عنه باللغات الأَجنبية ، كان باللغة الإِنجليزية ، وغير ذلك من المؤلفات التي لم أُحط بها علماً .

ولا أَدَّعي أَنني اطلعت على كل ما كتب من هذه الأَسفار ، وإِنما الذي أُؤكِّده أَنني حرصت بأَن أَطلع على قسم كبير منها .

والشيء الذي لم أنتبه له إلا في مناسبة طارئة ـ سوف

(١) « شبه جزيرة العرب » لخير الدين الزركلي ص ٩١ .

أذكرها قريباً ـ هو أن جميع الذين قرأت لهم قصروا شجاعة عبد العزيز على فتحه الرياض في ٥ شوال سنة ١٣١٩ هـ .

إلى درجة أصبح المرء منا عندما يجتمع بشاب من الشبان السعوديين . فيتطرق البحث إلى شجاعة عبد العزيز ، نجد هذا الشاب لا يعرف شيئاً عن بطولة عبد العزيز إلا الصورة التي شخصها له المؤرخون ، وحددوا معالمها وحصروها فقط في خبر فتحه مدينة الرياض وقتله عجلان .

كنت أقرأ ما كتبه المؤرخون عن فتح الرياض ، وعن ملحمة الرياض ، وأمرُّ على ذلك مروراً عابراً ، والسبب في مروري السريع يعود إلى الأحداث الخطرة التي نجمت عما بعد فتح الرياض والتي كانت عالقة في ذهني ومخيلتي الأمر الذي جعلني لا أعير اهتمامي ما أغفله المؤرخون من شجاعة عبد العزيز الفذَّة، ذات الشأن العظيم ، ليس بإقدامه على فتح الرياض ، وقتله عجلان وعدد من رجاله فحسب ، وانما شجاعة عبد العزيز التي يجب أن ينظر إليها بعين ملؤها

الإعجاب والتقدير والإكبار ، وأعني بها تلك الشجاعة الفذة الخارقة الانتحارية التي أعد نفسه لمواجهتها ـ بعد فتح الرياض .

وكان السبب الذي جعلني أفيق من غفلتي وأنتبه إلى سهو المؤرخين المشار إليه ـ ملاحظة أبداها أحد أبنائي الكبار الجامعيين وهو ممن له ميل في الاطلاع على تاريخ بلادنا .

وملاحظة ابني هذه كشفت لي أن شانه شان جيله الناشىء ، الذين فهموا خطأً أن عبد العزيز ليس له مواقف شجاعة وبطولة إلا مغامرته في فتح الرياض . وأن هذه الشجاعة تبتديء من ذلك اليوم وتنتهي إليه ، ولا شيء غيرها ولا بعدها .

أما لماذا أجمع المؤرخون عن بكرة أبيهم على جعلهم شجاعة عبد العزيز محصورة على فتح الرياض ؟ ....

فالجواب يجعلنا نعود إلى الحقيقة التي سبق أن أشرت إليها أكثر من مرة ، وهي أن الكثير ممن كتب عن تلك الحقبة الزمنية يجهلون معاني أدبنا الشعبي الذي يعكس

الصورة الناطقة للأَحداث التي اجتازتها البلاد ، أَما إِذا قال قائل : هناك مؤرخون من أَبناء المملكة ، بل ومن صميم أَهل نجد كالأَمير سعود بن هذلول صاحب كتاب « ملوك آل سعود » وكعالم الأنساب الشيخ حمد الحقيل صاحب كتاب « عبد العزيز في التاريخ » وغيرهما ممن لا أَستحضر اسمه .

فالجواب على ذلك أَن المؤرخين السعوديين الملمين بالأَحداث ، كانوا متأَثرين بكتابة الذين سبقوهم فهم يقرؤون ما كتبه أُولئك المؤرخون ، وعلمهم بأَحداث بلادهم راسخ في أَذهانهم ، كما كان الأَمر بالنسبة إِليّ ، وأَعترف أَنني كدت أَسلك سبيل من سبقني في سيري ، في كتابي هذا ، لولا الملاحظة التي سمعتها من ابني – وزاد على ملاحظة ابني تلك ما عدت به إِلى ذاكرتي مما سمعته من بعض الشبان الذين أَوهمتهم كتابة أُولئك المؤرخين – ممن توحي كتاباتهم للقاريء بأَن شجاعة عبد العزيز ابتدأَت باليوم الخامس من شوال عام ١٣١٩ وانتهت في ذلك اليوم وما بعد ذلك لا شيء ، أَو كما يزعم الجاهلون

أَو الحاسدون أَن عبد العزيز يدفع رجاله وهو يظل في المؤخرة ... وحتى بطولة عبد العزيز في مغامرته التي أَبداها في إقدامه على عجلان، حتى هذه لم أَقرأْ لمؤرخ أَنه أَعطى عبد العزيز المكانة الأُولى بين رجاله على الصورة التي يستحقها ، كبطل كان هو السبّاق الأَول ، والشجاع الذي تقدم رجاله البواسل في كل حركة ووثبة ، وهجوم قام به رجاله في تلك الليلة ، بحيث نجد عبد العزيز هو المقدام على جميع رفاقه كما سنوضح ذلك .

أخطأ الأولون ، وقلدهم الآخرون :

نتج عن إغفال أَولئك المؤرخين شجاعة عبد العزيز عما بعد فتح الرياض . وحصرهم لها في ذلك النطاق المحدود ، نتج عن ذلك الإهمال، أَن ما كتبه المؤرخون الأَوائل أَصبح المرجع التاريخي لأَيِّ كاتب أَو مؤرخ ، يكتب عن حياة عبد العزيز وعن شجاعته ، الأَمر الذي جعل المؤرخين المتأَخرين ينقلون صورة الغلط من الأَولين .

وهكذا ـ دواليك ـ ذهب الأَولون ومن أَتى بعدهم يدورون في فلك واحد ، وعلى نمط معين ، وعلى وتيرة

واحدة ، وإن اختلفوا في الأُسلوب ، فإنهم لم يختلفوا في إغفالهم ذكر بطولة عبد العزيز وتضحيته ، بل مغامرته الرائعة ، التي لا تقاس بها أَهمية فتحه للرياض وقتله لعجلان وعدد محدود من رجاله ، نعم لا تقاس بها هذه المغامرة ، فما هو عجلان وما هي سريته مهما كثر عددها - بالنسبة لأَبعاد المغامرة والأَخطار - والموت الزؤام ، والمهالك القاتلة التي وضعها عبد العزيز نصب عينيه عندما خرج من الكويت ؟ !

فهل يجهل عبد العزيز أَهمية الأَخطار ، والصعوبات التي سيواجهها بعد احتلاله للرياض وقتله عجلان ؟ !

هل أَدرك المؤرخون الصورة بكاملها ذات الشأْن في أَبعاد المغامرة والبطولة والشجاعة النادرة التي أَقدم عليها عبد العزيز في المرحلة الحاسمة التي سيواجهها بعد فتحه الرياض ، عندما حصروا شجاعته في مغامرته بفتح الرياض وهي مغامرة لا ينكر أَحد أَن لها أَهميتها ، ولكنها أَهمية لا يجوز أَن تجعل المصدر الأَول والأَخير في شجاعة عبد العزيز الصورة التي لها الشأْن العظيم في إقدامه البطولي على

تحديه ليس لعجلان الفرع الجزئي، وإنما لتحدي عبد العزيز للأَصل ، تحديه لسيِّد عجلان الأَمير عبد العزيز بن رشيد .

قد يظن الجاهلون بتاريخ بلادنا العسكري أَن عبد العزيز بن سعود لم يقدم على مغامرته في فتح الرياض إلا بعد أَن وثق أَن عبد العزيز بن رشيد ، في ظرف لا يسمح له قطعاً بأَن يأْتي ويحاصره في الرياض عسكرياً واقتصادياً ، وهذا الظن فيه بعض المنطق ، والعقل .

وربما أَن هذا الظن هو الذي جعل المؤرخين يعتقدون أَن فتح الرياض هو كل شيء في شجاعة عبد العزيز ، ويهملون ما هو أَخطر منه وأَكثر مغامرة من فتح الرياض .

أَمّا لو علم هؤلاء المؤرخون أَن عبد العزيز - عندما صمم على مغامرته - كان يدرك جيداً أَنَّ ابن رشيد في استطاعته أَن يأْتي إليه مسرعاً ، ويطوقه في مدينة الرياض ، ويضرب عليه حصاراً بجيشه اللجب ، وذلك في الأَيام الأُولى من فتحه الرياض ، ومع إدراكه لهذه الحقيقة أَقدم البطل إقداماً لا يقبل الحل الوسط إما أَن يموت في بلاد آبائه وأَجداده ، وإما أَن يستردَّ مجد أَهله التليد .

اعتقد جازماً أَن لو علم المؤرخون هذه الحقيقة لوجدناهم كتبوا - ويكتبون - كتابة مستفيضة ، يشيدون فيها ببطولة عبد العزيز النادرة ، وشجاعته الخارقة ، لا في إقدامه على تلك المغامرة ، بل سيوضحون فيها إقدامه البطولي في أَبعاد تلك المغامرة وماذا سيترتب عليها ؟ وماذا ستكون عاقبة القائد المغامر ؟ وما هي النتيجة المحفوفة بالمهالك والمخاطر ؟ اللذين لا تقاس نسبة مغامرة عبد العزيز في مباغتته لعجلان وقتله إياه بالمغامرة (الانتحارية) التي سيواجهها عبد العزيز ، فيما لو استعمل عبد العزيز بن رشيد قوته ، وبادر مسرعاً في غزوه الرياض بصورة فورية ، وذلك قبل أَن يبني الإمام عبد العزيز سور بلاده ، وقبل أَن يَلْتَفَّ حوله أَهل الرياض وقراها،ورؤساء قبائل نجد الموتورون من ابن رشيد .

أَجل إن بطولة عبد العزيز ومغامرته - فيما بعد مقتل عجلان وتحديه لعبد العزيز ابن رشيد - وهو حاكم نجد الذي لا ينازع ، والمنتصر في العام الماضي على الجيش العرمرم الذي التف حول الشيخ مبارك الصباح ، ذلك

الجيش الذي جاء به ابن صباح لا من قبائل نجد والخليج فحسب ، بل يضاف إليه أكثر قبيلة من قبائل العراق وأَكثرها عدداً وهي قبيلة (المنتفِق) وعلى رأْسها أَميرها الشيخ سعدون بن منصور بن سعدون .

زد على ذلك أَن قلوب سكان نجدفي الكثير منها بجانب ابن صباح ، وضد ابن رشيد إذا استثنينا من أَهل نجد أَهل (حائل) عاصمة إمارة ابن رشيد وقبيلة شمر ، ومع ذلك انتصر عليهم ابن رشيد انتصاراً ساحقاً ، وإذا أَضفنا إلى قوة ابن رشيد وانتصاره السالف الذكر ، وكثرة عدد رجاله الحضر البواسل ، ورجال قبيلته الفرسان ، إذا أَضفنا إلى ذلك كله شجاعة عبد العزيز بن رشيد وبطولته ، وفروسيته التي كتب عنها قائد الجيش التركي كتابة للسلطان في (استنبول) قال فيها : (إذا كان في العرب الأَوائل شخص يقال له الفارس (عنترة) ، فإن عبد العزيز بن رشيد هو عنترة عصره) ، كما كتب القائد العسكري التركي تحسين الذي وقع بينه وبين عبد العزيز ابن رشيد خلاف كتب للسلطان كتابة يبرر فيها وجهة



الأمير عبد العزيز بن متعب بن رشيد

نظره باختلافه مع أَميره فقال في كتابته : (إن الأَمير عبد العزيز بن رشيد عنيدٌ وجبَّار ، عناداً وجبروتاً ، لو وضع فوق رأْسه إناء فيه ثلج لغلى الثلج في ثوان كما يغلي الماء إذا وضع فوق النار).

لا يعني هذا أَنني أُقلل من أَهمية مغامرة عبد العزيز وبطولته . في قتله عجلان ، واحتلال الرياض بل إنني أَعتبر تلك المغامرة الجريئة بداية في فتوحات عبد العزيز وأَضيف : إن تلك المغامرة - رغم عظمة شأْنها - تعتبر نسبتها صغيرة الحجم ، فيما اذا وضع المؤرخ المطلع هذه البداية في كفة ، ووضعت الأَخطار التي بعدها في الكفة الأَخرى

مغامرة احتمال النجاح فيها جزء من الف :

قلت في مقدمة هذا الفصل : إن عبد العزيز من الأَبطال الشجعان الأَفذاذ الذين يتصرفون بأَعصاب ثابتة ، وهم في وطيس الوغى كيف يشاؤون ، وذكرت جملة قلت فيها : إنَّ عبد العزيز حينما يجد نفسه مُرْغَماً على أَن يغامر في

خوض معركة النجاح فيها جزء من مائة فإنه يقدم على مغامرته هذه الخ ...

ولكن فاتني الانتباه لأَن أَقول : إِن عبد العزيز إِذا رأَى أَنْ لا محيص له ولا مفرَّ من أَن يغامر بنفسه في معركة يربح بها لنصر – ولو كان إِحتمال النجاح فيها ضئيلاً – لما توقف لحظة واحدة عن خوض هذه المعركة دون أَن يَحْسِب ماذا تكون نتائج تلك المعركة .

إن القاريء الملم جَيِّداً بتاريخ بلادنا ومعرفة ظروف تلك البلاد في الوقت الذي أَقدم فيه عبد العزيز على فتح الرياض وقتله عجلان يدرك للوهلة الأُولى أَن عبد العزيز حينما خرج من الكويت لم يكن يعتبر أَن المعركة التي سيقدم على خوضها سوف تنتهي بقتله عجلان ، أَو أَنَّ الخطر المتجسد أَمامه محصور في قدرته على استيلائه على الرياض ، وإبادة سرية ابن رشيد ورئيسها عجلان ، بل كان عبد العزيز واضعاً نصب عينيـه مختلف الاحتمالات ليس من عجلان وسريته المحدودة العدد ، بل إنه مقدم على أَن يتحدَّى الأَسَدَ في عَرينِهِ ، وأَعني سيد عجلان الأَمير

عبد العزيز بن رشيد.تلك الاحتمالات التي أَشدها وأَخطرها أَن ابن رشيد سيأْتي بقوته الضاربة في الأُسبوع الأَول من احتلال عبد العزيز الرياض ، ثم يحاصره في بلاده حصاراً عسكرياً واقتصادياً وذلك قبل أَن يستفحل أَمره .

فهل هذا الاحتمال غائب عن بال عبد العزيز بن سعود ،أَم أَنه حسب له الف حساب ومع هذا فهو مقدم بكل بطولة ورباطة جأْش على تحدِّي ابن رشيد ، مهما كانت قوته ومهما كثر عدد رجاله ، ومهما نعته القائد التركي بحق أَنه (عنترة) عصره .

هذا التحدي من عبد العزيز هو مضرب المثل في شجاعته :

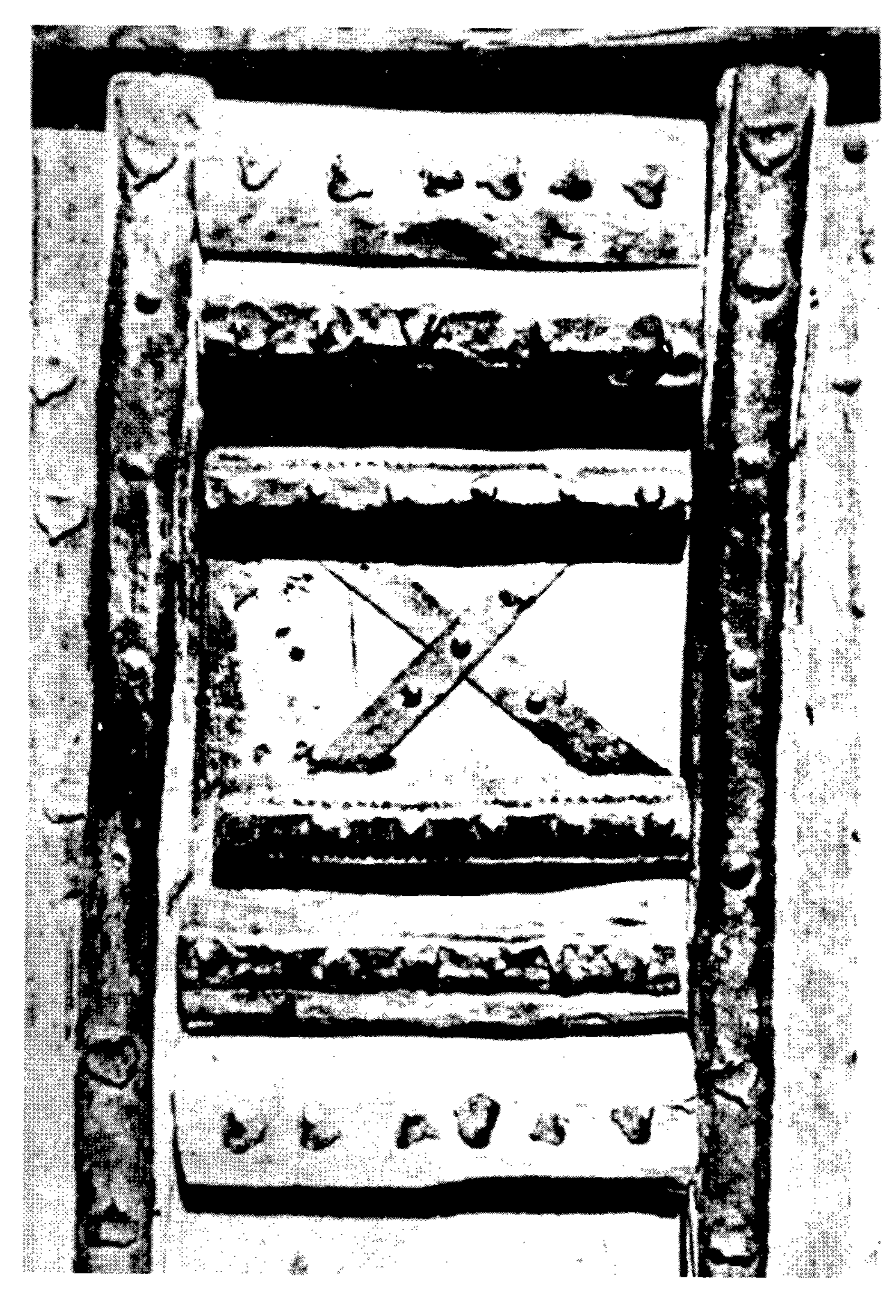
كان عبد العزيز في قدومه من الكويت متخذاً قراراً بطولياً لا يقبل أَنصاف الحلول ، فهو إِما أَن يموت شجاعاً بطلاً فوق التربة التي هي مسقط رأْسه ، وإِما أَن يكون سَيِّدَ البلاد ، وأَوضح دليل على ذلك أَننا نجد عبد العزيز عندما دنا من الرياض اتخذ التدابير (البطولية) التي تعبر تعبيراً واضحاً أَن قراره إِما النصر وإِما الموت هذا القرار

يتضح لنا من الخطَّة الحربية التي اتخذها عبد العزيز على الوجه الآتي :

اولاً – أَنه سأَل عن قبر شقيقه فيصل المدفون في مقبرة الرياض ، وعندما أَخبر بمكانه قال لرفاقه : غداً إِما أَن يكتب لي النصر ، وإِما أَن أُقتل فإِن كانت الثانية فإِنني أُوصي الحيَّ منكم بأَن يكون قبري بجانب قبر أَخي فيصل .

ثانياً – عندما دنا من مدينة الرياض ترك الإِبل التي أَقلَّته من الكويت صحبة ثلاثة من رفاقه ، وقال لمن ترك عندهم الرواحل : إِنني ماضٍ في سبيلي فإِن ارتفعت الشمس بدون أَن يأْتي منا رسول يخبركم عنا ، فهذا يعني أَنني ورفاقي قُتِلنا ، فلكم أَن تذهبوا إِلى حيث شئتم .

إِن هذه الخطة العسكرية الصارمة تطابق الخطة العسكرية التاريخية التي نفذها طارق بن زياد عندما أَحرق السفن ، وقال : العدو أَمامكم والبحر خلفكم الخ ... فعملٌ عسكريٌّ كهذا ، ومغامرة كهذه ، ليس فيها قطعاً ما يُسَمَّى بالحلِّ الوسط ، فإِما النصر ، وإِما الموت ، فكانت الأُولى (اطلب الموت توهب لك الحياة) .



خوخة (باب المصمك)

ثالثاً – في مغامرة (انتحارية) من هذا النوع الخطر نرى عبد العزيز لم يرسم الخطة الحربية في المكان الذي يسمى (مكان العمليات العسكرية) ولم يظل في خيمته يدبر جنوده كما هي الحال في بعض المعارك التي تقتضي ذلك ، ولم يمتط صهوة جواده – وينظر إلى سير المعركة بمنظاره المكبر ويأمر بالتقدم والزحف ، كما تقتضي الحال في ظروف المعركة ، التي يرى القائد العسكري أن من نجاح الخطة العسكرية أن يفعل ذلك .

كلا !! بل نرى عبد العزيز في تلك المغامرة قد تقدم رجاله البواسل ، وعندما دنوا من المنزل المجاور لمنزل قصر (المصمك) الذي كان يحله عجلان كان هو أول المتسلقين ، في ظلام ذلك الليل المدلهم ، وحينما وصل إلى المكان الذي يبيت فيه عجلان ، كان هو أول من داهم زوج عجلان واختها المضطجعة بجانبها ، وهما متدثرتان في مضجع واحد ، ولو كان عجلان في المضجع لما كان يفتك به أي واحد من رجال عبد العزيز قبل عبد العزيز نفسه .

رابعاً ـ عندما انبلج الفجر واشرقت الشمس وخرج قائد الحصن عجلان من حصنه متوشحاً سيفه كان أَول من باغته بإطلاق النار عليه من بندقيته هو عبد العزيز ، كما أَن أَول سلاح استعمل من عجلان ورجاله ضد جماعة عبد العزيز هو سلاح عجلان الذي أَهوى به على عبد العزيز قاصداً أَن يقتله لولا أَنَّ عبد العزيز كان أَسرع منه بإطلاقه عليه الرصاصة التي وان لم تصب عجلان بمقتل ـ إلا أَنها أَصابته في يده وسقط سيفه من يده من أَثر الإصابة .

خامساً ـ عندما أَدبر عجلان قاصداً أَن يدخل حصنه المنيع كان عبد العزيز أَول واحد من رجاله عاجله وأَمسك برجله وعاقه عن دخول الحصن بالسرعة التي يريدها عجلان .

سادساً ـ حينما قاوم عجلان مقاومة المستميت وركل عبد العزيز برجله ركلة أَصابته في خاصرته فأُغمي عليه من أَثرها قليلاً ، كان عبد العزيز أَول مقاتلٍ من قومه تناله إصابة من العدو ، ولولا هذه الإصابة لما دخل حصن عجلان قبل عبد العزيز أَيُّ مقاتل من أَقاربه ورجاله الشجعان .

وهنا يحسن بي أَن أَقول : إذا كانت حياة موحد جزيرة العرب كلها بطولات ، فإن ما ذكرته آنفاً يعتبر البطولة الأُولى التي تليها مغامرات ، وبطولات وتحديات لشجعان عصره بصورة تفرض الهيبة لصاحبها ، وتحدث في نفس القاريء والسامع إعجاباً وتقديراً لبطولة عبد العزيز الفذة والنادرة من نوعها .

أفضل ترجيح رأيي إذا كنت على خطأ

كنت أَتمتع بذاكرة قوية ، بصورة قلَّ أَن أَنسى الأَحداث التي تمر عليَّ وخاصة الأَحداث التي يهمني الاحتفاظ بها .. هكذا كنت قبل أَن تكثر عليَّ مشاكل الحياة ونوائب الدهر ، التي قال عنها الشاعر الشعبي :

وَيْلاَه ! منْ هولَ الدهَرْ شيَّبَ الراسْ
كلَّ ما قضينا حاجْةٍ عازْ غَيْـــرَهْ

أَما بعد أَن تراكمت عليَّ تبعة الأَبناء ، وتجاوزتُ سنَّ الشباب ، فقد فقدت كثيراً من تلك الذاكرة التي أَعتز بها . الأَمر الذي جعلني أَعتمد على كتابة الأُمور التي يهمني الاحتفاظ بها ، وقد سجلت كتابة اتصالاً هاتفياً

جرى فيه حوار بيني وبين أَخ عزيز من أَصدقائي الأَوائل ، إن لم أَقل صديق العمر ، سجلته في ١٩ شوال ١٣٩٤ هـ الموافق ٣ نوفمبر ١٩٧٤ . وقد كان ذلك في مدينة الرياض ، لقد اتصلت بصديقي هذا لأَسأَله عن رأْيه في مؤلفي « من شيم عبد العزيز » على اعتبار أَن مسودّة الكتاب وضعت عنده لينظر فيها ، بصفته أَديباً يركن إليه في الأَدب العربي الفصيح .. وفي أَدبنا الشعبي معاً ، كما أَنه لا يخلو من إلمام بتاريخ بلادنا . وقد دار بيني وبينه هذا الحديث :

– لعلك يا أَخي قرأْت كتابي ، فإن كنت قرأْته فما هو رأْيك فيه ؟ ..

– قرأْت صفحات من أَوله ، ولم أُنْهِ قراءته بعد ، وقد لاحظت جملة أعترض عليها لعدم صحتها .

– أَيّ موضوع ترى أَنه يخالف الصواب ، دوّنه كتابة لكي نتداول الرأْي فيه ، لأَن هدفي الوقوف على الحقيقة ، ثم ما هي الملاحظة التي تراني جانبت الصواب بها .



جلالة الملك خالد بن عبد العزيز

- لقد قلت : إن أَهل الرياض حاربوا عبد العزيز في هجومه الأَول على الرياض وهذا القول ليس صحيحاً .

- لست أَنكر أَنَّ العدد الوافر من أَهل نجد بصورة عامة هم الذين ساهموا في بناء هذه الوحدة ، وأَهل الرياض بوجه خاص هم العنصر الفعال المباشر ، وهم الجيش الأَمامي والاحتياطي ، الذين آزروا عبد العزيز في بنائه لصرح هذه الوحدة الوطنية الخالدة ولكنهم في هجوم عبد

(١) اعترف بأن وحدة بلادنا هذه الميمونة المباركة ، وإن يكن أسهم في بنيانها بصورة عامة جميع أهل نجد حضراً وبدواً ، وقد يكون فيهم المقاتل ضدها جهلاً وعنصرية .. ثم عاد هذا وشارك في توطيدها ، ولكن الذي لا شك فيه أن هذه الوحدة الوطنية التي نسأل الله لها الخلود لم تقم إلا بفضل الله ثم بجهود عبد العزيز وبصورة خاصة في مؤازرة أهل الرياض له بصفتهم اللبنة الأولى في تأسيس بنيان هذه الوحدة . ويكفي دليلاً على ذلك ، أن أكبر حيٍّ في الرياض الذي هو حي (الظُّهَيْرة) هذا الحي ليس كثير من نسائه ثياب الحداد نتيجة للقتلى من أبطال ذلك الحي في وقعة (البُكَيْرِيَّة) الكائنة بين عبد العزيز بن سعود وعبد العزيز بن رشيد في ١٣٢٢/٤/١ هـ (الموافق ١٩٠٤/٦/١٥ م) .

وفي ١٣٩٥/٢/٦ الموافق ١٩٧٥/٢/٧ سمعت الأمير خالد ولي العهد آنذاك والملك الحالي يقول : إن الذين قتلوا من أهل الرياض في معركة (البكيرية) ثمانمائة شخص .. قال هذا الكلام في مناسبة الحديث عن شجاعة وبطولة أهل الرياض . ولا تبرز ضخامة هذا العدد إلا عندما نذكر ضآلة عدد السكان في تلك الفترة .

العزيز الأَول للرياض كانوا يحاربونه ، ولم يحاربوا معه في ذلك الهجوم .

– : بل حاربوا معه في ذلك الهجوم وحفروا (سرداباً) أَي نفقاً – قاصدين أَن يصلوا عن طريقه إلى حصن سرية ابن رشيد التي تحتمي فيه ، وقد انفجر اللغم الذي حفره أَهل الرياض فأَصاب شخصاً من أَهل الرياض وحصل له شلل في يده(١) .

---

(١) عندما وجدت صاحبي مُصِرّاً على رأيه وخاصة في حفر النفق تصورت أن هذا الإصرار منه لا يمكن إلا أن يكون مبنياً على رواية تلقاها فرسخت جذورها في ذهنه . وإلا لماذا يستمر في إصراره لو لم يكن قانعاً بصواب الرواية ، وهذا يعني أن لحادثة حفر النفق شيئاً من الحقيقة التي يستند اليها أخانا الذي ذكرت انه مُلـمٌ بتاريخ أحداث بلادنا .

وبما أنه لم يكن من المراجع ما أركن إليه سوى الشيوخ الثقات الذين عاشوا تلك الحادثة ولم يبق منهم سوى الشيخ محمد الصحابي ، فإنني عدت إليه أسأله عن موضوع النفق ، فكان جواب الصحابي مؤيداً لرأيي من حيث المبدأ أي من حيث أن أهل الرياض حاربوا عبد العزيز كما سيرى القارىء توضيحاً لذلك في الصفحات الآتية ، كما أن رواية الصحابي مؤيدة لرأي صاحبي من حيث العمل الفردي الذي قام به شخص من أهل الرياض يدعى (ابن هدهود) مختص بنحت الحجارة ، فجاء به عبد العزيز ليقوم بحفر الأرض ليصل إلى القصر الذي فيه سرية ابن رشيد ، والحفر كان من قبل المسجد المجاور لحصن السرية ، وعندما أرسل عبد=

- : عليك أَن تثق أَيها الأَخ بأَنني وإن كنت أَفضل بأَن أَكون على حقٍّ وصواب في الأُمور التي أَكتبها فإِنني في الوقت نفسه أَفضل أَن أَجد من يهديني إلى الصواب ، فيما إذا كنت مخطئاً في اجتهادي : ولكن هناك ملاحظة أُريد أَن أَلفت نظرك إليها وهي أَنه ما دام أَن أَهل الرياض حاربوا مع عبد العزيز في هجومه على سرية ابن رشيد ، أَو ما دام أَن عبد العزيز عندما أَقدم على هجومه على عجلان لديه خبرة وتجربة بأَن أَهل الرياض سوف يحاربون بجانبه ، فلماذا يتسلق الجدار في غلس الليل ؟ .. ولماذا لا يقدم اقدام الواثق بأَن أَهل البلاد بجانبه .. وهو في حالة كهذه يريح نفسه من تلك المغامرة الفذَّة ، التي لم يكن لها تلك الأَهمية العسكرية من حيث الإقدام والبطولة فيما لو كان أَهل الرياض سبق أَن عرف عنهم أَنهم حاربوا معه، أَو أَنهم سيحاربون معه فيما بعد ؟ ..

= العزيز بن رشيد إلى الرياض سالماً السبهان المشهور بعنفه الشديد ، كان من جبروته أن قطع يد العامل الأجير الذي حفر النفق (ابن هدهود) ، ويؤكد الشيخ الصحابي ان ذلك العامل المناضل في سبيل الكسب الحلال المشروع لم يقعده قطع يده عن مواصلة مهنته بل ظل ينحت الصخر بيد واحدة .

– : كيف تريد من عبد العزيز أن يأْتي إلى بلاد يحكمها العدو ، الذي أَحاطها بالسور ؟ !

– : وهل في البلاد سور في عهد ابن رشيد .. أَو لم يكن السور هدمه محمد بن رشيد .. او لم يكن همُّ عبد العزيز الوحيد بعد أَن قتل عجلان أَن جَدَّ واجتهد وبنى سور الرياض ؟ ..

ومضيت قائلاً : أَلا يرضيك ما كتبه المؤرخون ومنهم المطلع على هذه الأُمور بصفته ابن البيئة كمسعود بن هذلول!

– : وماذا يعرف مسعود . أَلا تعلم أَنني نقدت كتابه ..

– : إذا كنت يا أَخي لا تقنع بما كتبه المؤلفون ، كما لا يوجد على قيد الحياة الآن من الشيوخ الذين عاصروا تلك الحادثة شخص يتمتع بقوة الذاكرة ويركن إليه في روايته ، فمن هو الذي ترضى أن يكون حكماً مقنعاً لك ولي ، لأَنني – كما أَسلفت – يهمني الوقوف على الحقيقة ، وإن كانت هذه الحقيقة خلاف الرأْي الذي أَريده دعماً لنظريتي ، فهذا الأَمر لا أَرغب فيه ، لأَن



جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز

القليل من الحقيقة والصدق في نظر الكاتب الصادق الأمين أفضل عنده من المعاني التي وإن كانت جذابة ومغرية للقاريء .. فإنها لا أهمية لها عند من يكون رائده الوصول إلى الحقيقة .

- : أنا متأكد من أن أهل الرياض حاربوا مع عبد العزيز في هجومه الأول .

عندها توقفت المحادثة بيني وبين صديقي بدون أن يقنع أحدنا برأي صاحبه .

لا بد لي من الرجوع الى أرسخ العارفين علماً في تاريخ بلادنا :

حينما رأيت إصرار صديقي على رأيه ، وحينما وجدتني حريصاً على الوقوف على الحقيقة ، سواءً التي أدعم بها وجهة نظري ، وهذا ما أودّ ، أو الابتعاد عن الخطإ التاريخي ، فيما إذا كان رأي صديقي هو الصواب والأصح ، وهذا هو الذي أريده أيضاً ، عند ذلك وجدت أن المرجع الوحيد الذي لم يكن هو أرسخ العارفين علماً بتاريخ بلادنا فحسب ، بل والذي أعتقد أنه الحكم العادل المقنع لصديقي ولي كذلك ، وهذا الحكم هو الملك

فيصل ، الذي وإن كانت هيبته ووقاره وسلطانه كلها ، تحول دون سؤالي إياه في هذا الموضوع التاريخي ، فإن حلمه وسماحته وتواضعه مما يشجعني على أَن أَستفسر منه عن هذه الحقيقة ، التي وإن كنت على يقين من صواب ما ذكرته ، فإن ملاحظة الأَخ الصديق أَوجدت في نفسي الشك الذي جعلني أَحرص على إزالته باليقين .

كان ذلك في يوم ٢١ شوال ١٣٩٤ (الموافق ٥ نوفمبر ١٩٧٤ م) في ظهر ذلك اليوم ذهبت إلى منزل الملك فيصل في الرياض في الموقع الذي يسمى (المَعْذَر) ، فأَدَّيت صلاة الظهر معه في المسجد داخل منزله ، وبعد تأْدية الفريضة ، ذهب الملك لتناول طعام الغداء ، وتبعته إلى أَن أَخذ مكانه من المائدة ، وبعد ذلك جلست محاذياً له من الجانب الأَيسر ، ولم يكن بينه وبيني سوى شخص واحد ، وبعد فترة وجيزة إتجهت نحو الملك وقلت : أَطال الله عمرك ، هناك خلاف بيني وبين الأَخ الأُستاذ (فلان) حول موقف أَهل الرياض من جلالة والدكم - غفر الله له - عندما جاء في هجومه الأَول على سرية ابن رشيد في الرياض ،

فالمعلومات التي لديَّ تفيد أَن أَهل الرياض حاربوا المغفور له ، والأُستاذ فلان يقول : بل إن أَهل الرياض حاربوا معه سرية ابن رشيد .

وقد حضر على تلك المائدة الأَمير فهد بن خالد بن عبد الرحمن آل سعود ، كما حضرها رئيس ديوان المظالم ، أُستاذنا الشيخ عبد الله المسعري ، وحضر أَيضاً محمد الفِرْم ، ومحمد بن فَضْلِيَّة ، وعدد من المواطنين .

وكان جواب الملك مؤيداً تأْييداً قاطعاً لما قلت ، ونافياً نفياً باتًّا ما أَورده الأَخ الصديق .

لا زال صديقي يود أن يطمئن :

في نفس اليوم الذي خرجت به من منزل الملك ، اتصلت بصديقي (هاتفياً) وأَخبرته بما سمعته من الملك فيصل ، وإذا كان الصديق لم يُبْدِ أَية كلمة يعبر بها عن عدم قناعته بما نقلته له عن الملك ، فانه قال : زيادة للتأَكد ، أُريدك أَن تسأَل الشيخ محمد بن عُبيكان ، فقلت : لا شك عندي بصدق الشيخ ابن عبيكان وسعة اطلاعه خاصة في هذا الموضوع ، كما أَنني قابل حكم هذا

الشيخ محمد عبيكان ، والشيخ محمد أحمد نعمان ، و المؤلف :

الشيخ فيما إذا أورد أدلة تؤكد وجهة نظرك ، وتفند ما ذهبت إليه في رأيي .. ثم قلت : ولكن إذا جاء حكم ابن عبيكان مؤيداً رأيي ، فهل تقنع ؟ ! قال : نعم أقنع ..

وفي ٢٣ شوال ١٣٩٤ – ٧ نوفمبر ١٩٧٤ ذهبت إلى الشيخ محمد بن عبيكان وقدمت إليه مؤلفي « من شيم عبد العزيز » وطلبت منه ان يوافيني برأيه ، في أيّة جملة يرى فيها جانباً مخالفاً للصواب ، وقلت : ألا يكفيك سبعة أيام في مطالعتك للكتاب لتبدي رأيك فيه ؟ .. فقال يكفي ذلك .

ومن يعرف الشيخ محمد بن عبيكان يدرك أنه الرجل الذي لم يكن تقيًّا صالحاً فحسب ، بل الرجل الكريم الصريح ، الذي قد تجلب له صراحته هذه نفوراً عند من لا يألف صراحة كصراحته .

وبعد مضي الأُسبوع المحدد بيننا ، ذهبت إلى منزل الشيخ ابن عُبيكان ، فوجدته جالساً في مكتبته العامرة بالمخطوطات العربية ، كما وجدت كتابي بجانبه ، وقد

ناولني الكتاب ومعه الرسالة التالية ، التي أَوردها بنصها الحرفي :

الأَخ العزيز فهد المارك ،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ..

لقد قرأْت كتابكم « من شيم عبد العزيز » من الغلاف إلى الغلاف ، فوجدت أَنك لم تَعْدُ الحقيقة ، وإذا كان لأَيّ كاتب ، مهما أُوتي من بيان وسعة اطلاع ، لا يمكنه مع ذلك أَن يستوعب شمائل عبد العزيز ، فلقد كان من أَفذاذ الرجال ، وقلَّ أَن أَنجبت الجزيرة العربية في هذه الأَزمان رجلاً من وَزْنِهِ في شمائله وتدينه ، ولقد أَظهره الله في وقت كانت فيه البلاد بأَمسِّ الحاجة إلى رجل مثله ، فجمع شملها ووحد صفوفها ، بعد أَن كانت الفوضى ضاربةً أَطنابها ، وكان رحمه الله سمحاً كريماً غيوراً على الدين والأَخلاق ، محافظاً على واجباته الدينية ، يغضب إذا انتُهِكتْ حرماتُ الله ، فأَسس هذه الدولة على قواعد متينة من الدين والأَخلاق ، وبناها على ثلاث دعائم: الدّم ، فلقد جرح عدة مرات ، وعلى الورع ، فعندما

بحزنه أَمْرٌ يفزع إلى الصلاة ، والتضرع بين يدي الله ..
ولست أَدعي له العصمة ، فالعصمة لا تكون إلا للأَنبياء
عليهم السلام ، رحمه الله رحمة الأَبرار ، ووفق أَبناءه
وذويه للسير على هديه ، وترسم مواضع أَقدامه بمنه وكرمه.
وتقبل تحياتي .

المخلص : محمد بن عبد الرحمن بن عبيكان

حينما قرأْت هذه الرسالة الموجزة ، دون أَن أَجد فيها
شيئاً عن الملاحظة التي أَبداها الأَخ الصديق . قلت للشيخ
العبيكان : إن الأَخ (فلانا) يقول : إن أَهل الرياض
حاربوا مع عبد العزيز سرية ابن رشيد عندما جاء عبد
العزيز إلى الرياض في هجومه الأَول ، بينما المعلومات التي
ذكرتها في كتابي تفيد أَن أَهل الرياض حاربوا عبد
العزيز ، وقد رفض صديقي فلان أَيَّ حكم في الموضوع إلا
الحكم الذي تحكم به أَنت ، كما أَنني رغم قناعتي بوجهة
نظري قابِلٌ حكمك إذا أَوردت الأَدلة المنطقية المقنعة .

فقال العبيكان (١) موضحاً المحذور والسبب الأساسي الذي يبرر لأهل الرياض محاربتهم عبد العزيز : إن أهل الرياض عندما يحاربون عبد العزيز فليس ذلك كرهاً له ، وحُبًّا بابن رشيد ، وإنما كان خوفاً من العقاب الصارم الذي سيتخذبحقهم عبد العزيز بن رشيد .

---

(١) الشيخ محمد بن عبيكان من آل عمران الذين هم من أقدم وأعرق أُسَر مدينة الرياض حسباً ونسباً ، وقد عمل العبيكان سفيراً لبلاده في صنعاء والخرطوم ، واستقال من السلك الخارجي بمحض إرادته ، وقدر لي أن أعمل معه عضواً في سفارة جلالته في صنعاء ، وقلّ أن عرفت رئيس بعثة من رؤساء البعثات الذين زاملتهم في العمل رجلاً صريحاً في إعلان ما يعتقده كمحمد بن عبيكان ، بل ولم أعرف من أعجبت به في شموخ أنفه وعدم خنوعه على من يرى نفسه أعلى منه وتواضعه على من هو تحت رئاسته كهذا الرجل .

عَاصَرَ الأَحدَاثَ وَيملِكُ ذَاكِرَةً لَاتَخِيبْ

كان أَول اجتماع لي بالشيخ محمد الصحابي في يوم ١٧-١١-١٣٣٤ (الموافق ١-١٢-١٩٧٤)م .

والشيخ الصحابي هذا ، وإن لم يكن أَسَنَّ الرجال الأَحياء الذين عاصروا الأَحداث مع عبد العزيز فإِنه في مقدمة الرجال الأَحياء الذين قلَّ أَن وجدت لديهم مثلما وجدت لديه من قوة الذاكرة والتعبير الواضح في عرضه للأَحداث .

وحينما هجم عبد العزيز على الرياض في المرة الأُولى كان الشيخ الصحابي يافعاً في حدود سن التمييز على حد قوله ، ومعناه أَنه إِذا لم يشارك أَهل الرياض في الحادثة فإِنه عاصرهم ، وعاشرهم عن كثب ، وأَعني بذلك جيل أَهل الرياض الذين عاشوا تلك الحادثة وعرفوا ظاهرها

وخفاياها على الصورة التي وجدتني حريصاً على أن أسمع تفاصيلها من الشيخ الصحابي ، لكي أُدْعِمَ وجهة نظري بأَدلة مضافة على الأَدلة السابقة ، ولكي أُثبت لصديقي من ناحية ثانية أَنه مخطيء في إصراره على وجهة نظره ، أَو أَركن إلى وجهة نظره عندما أَجد لدى الصحابي ما يؤيدها ويفند رأْيي .

ولقد ذهب الشيخ الصحابي يروي قصة هجوم عبد العزيز الأَول على الرياض فيقول : (انطلق عبد العزيز في هجومه من مكان يقع في ظهرة (منفوحة) ومضى في هجومه عن طريق الموقع الذي يسمى (مِعْكال) ١) وتصدَّى لهجوم عبد العزيز هذا ، سرية عبد العزيز بن رشيد برئاسة عجلان ، وساند سرية ابن رشيد في صد هجوم عبد العزيز المسلحون من أَهل الرياض ، الذين رابطوا في منزل عبد الله بن مَرْشَد الذي أَصبح الآن مكتبةً . ويفيدنا الصحابي وهو شاهد عيان ، بأَن بعض البدو الذين انضموا إلى جانب

(١) (منفوحة) و (معكال) وغيرهما من الأماكن المتاخمة لمدينة الرياض كانت في تلك الفترة مزارع ونخل يسكنها الفلاحون وكلها أصبحت الآن مشمولة بالعمران الحديث .

عبد العزيز كان الحافز لانضمامهم إليه الرغبة في النهب والسلب من أَهل الرياض ، وأَيَّد روايته هذه قائلاً : إنه رأَى بعينيه أَحد رؤساء قبيلة (سُبيع) مشعل بن دُهيمان ، رآه ينهب أَثاثاً من أَهل الرياض الساكنين في حي يُسَمَّى (الدِّحْو) .

وفي تلك الحرب قتل رجلان من البدو الذين مع عبد العزيز وهما من قبيلة (سُبيع) يسمى أَحدهما ابن صَلاَّل والثاني الْمُلِيحي ، وفي ذلك القتال أَبدى الشيخ محمد ابن عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ بطولة أَعجب بها عجلان آمر سرية ابن رشيد الأَمر الذي جعله يهدي للشيخ محمد فرساً (١) تقديراً لما قام به من الشجاعة في صده لهجوم عبد العزيز . كما أَن الشيخ محمداً جُرح في يده من أَثر ذلك القتال ، كما جرح أَيضاً عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ إذ أُصيب بجرح في رقبته من جنود عبد العزيز . هذا ما نقلته عن الشيخ الصحابي .

ويقول بعض الرواة : إن الشيخ محمداً أَصاب عبد

---

(١) تعتبر هبة الفرس أعلى وسام شرف في ذلك العهد .

العزيز بجرح خلال تلك الحرب التي استمرت اربعين يوماً ، ثم انسحب عبد العزيز عندما بلغه خبر من والده الإمام عبد الرّحمن الفيصل بأَن ابن رشيد انتصر على ابن صباح في معركة (الطُّرْفيَّة) التي جرت في ١٧–١١–١٣١٨هـ (الموافق ٧–٣–١٩٠١ م) ويقول الصحابي : (إن الرسول الذي بعثه الإمام عبد الرحمن الفيصل لابنه عبد العزيز اسمه خدعان بن شبيب من فخذ الاعِزَّة من قبيلة سُبيع) .

ولا عجب فيما إذا تصدَّى أَهلُ الرياض لمحاربة عبد العزيز ، وذلك لأَن نجداً بكاملها تحت نفوذ عبد العزيز بن رشيد وحكمه ، وحينما وقعت معركة (الطُّرْفية) بين ابن رشيد وبين ابن صباح ، كان مشاهير أَهل نجد البارزين بجانب ابن رشيد .. فأَهل الرياض كان أَميرهم في تلك المعركة عبد الملك بن عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ ، وأَهل شقراء والوشم كان أَميرهم عُبَيِّد البواردي ، وأَهل المجمعة كان أَميرهم أَحمد بن عسكر .. وأَهل الزُّلْفِي كان أَميرهم فهد بن راشد وأَهل روضة سُدَيْر كان أَميرهم ابن ماضي ، وأَهل الرسّ كان أَميرهم حسين بن عَسّاف ..

وأَهل بُريدة كان أَميرهم الرِّبْدِي ، وأَهل عُنيزةَ أَميرهم صالح بن يَحْيي (١) الخ .

وختاماً أَرجو المعذرة من القاريء الكريم ، فيما إِذا أسهبت في هذه الحادثة، وما ذلك إِلا من أَجل الأَمرين التاليين : أَولا - أَنني أَود أَن أُثبت صحة رأْيي حينما أَكدت جازماً وعن علم وخبرة ، بأَنه ما من بلد ولا من قبيلة إِلا وحارب عبد العزيز ، بما في ذلك أَهل الرياض ، وأَكدت ذلك بالأَدلة المدعمة بالبراهين ، التي لا مجال للشك في صحتها ، ومن لم يحاربه قبل قتله عجلان فإِنه لم يحارب معه .

أَما بعد أَن تم له النصر بعد قتله عجلان وقضائه على سرية ابن رشيد فإِن كل أَهل الرياض أَصبحوا معه ، وفْقاً لما قاله أَحد القادة العسكريين، الذي أَراد أَن يقوم بانقلاب يستولي به على الحكم في فرنسا ، ولكنه فشل ، وعندما قُدِّم إِلى المحاكمة قال له رئيس المحكمة : من هم

(١) هذه المعلومات نقلتها عن المرحوم سويلم الشعلان الذي حضر تلك المعركة بجانب ابن رشيد وهو من أصدق الرجال . (راجع الجزء الثالث من « شيم العرب » ص ٢٠٤ .

الذين كانوا متآمرين معك في عملك هذا ؟ ! .. فأَجاب القائد الفاشل : كل سكان (باريس) معي فيما لو حالفني الحظ ونجحت .

وهكذا كما قال القُطَامي :

والناس من يلق خيراً قائلون له
ما يشتهي ولأُمِّ المُخْطِىءِ الْهَبَلُ

ثانياً ـ أَكدت بهذا الفصل بالذات بأَن عبد العزيز العزيز من الأَبطال العباقرة والأَفذاذ الذين ينطبق عليهم قول الشاعر علي بن المقرب الأَحسائي :

وإن يدرك العليا همامٌ بقومِه
فنفسي تناجيني بإدراكها وحدي

ذلك لأَن موضع إعجاب المؤرخين في بطولة عبد العزيز وشجاعته هو أَنه أَقدم وحده في هجومه على سرية ابن رشيد في الرياض ، ولم يكن بجانبه إلا عدد من أُسرته ومن رجال أَهله القدامى الذين جاءوا معه من الكويت ، أَما البدو الذين جاءوا معه فإن همهم كان النهب والكسب

والسلب من حضر أَهل الرياض ، كما أَكَّد ذلك الشيخ الصحابي فيما أَوردته آنفاً .

أَما إذا كان عبد العزيز عندما هجم على آمر سرية ابن رشيد ، كان ضامناً لنفسه خط الرجعة والسلامة ، بحكم أَن أَهل مدينة الرياض سوف يحاربون بجانبه ويطوقون عجلان في قصره – على حد ما يراه صديقنا – فإذا كانت الرواية صحيحة فهذا يعني أَن مغامرة عبد العزيز في خروجه من الكويت وإقدامه على قتل عجلان ، هذا العمل البطولي سوف يفقد ولا شك طابع الشجاعة والإقدام اللذين هما مضرب المثل في إقدامه في تلك المغامرة (الانتحارية) التي لا مجال لها البتة في شيء اسمه الحل الوسط ، فإما أَن يموت ميتة الأَبطال فوق التربة التي هي مسقط رأْسه ، ومنطلق مجد آبائه ، وإما أَن يعيد مجد آبائه وأَجداده ويحقق طموحه وآماله وأَمانيه التي يصبو إليها في توحيده هذه البلاد المترامية الأَطراف ، التي لم يقدر لأَهلها هذه الوحدة الأَخوية لو لم يقيض الله لها عبد العزيز – غفر الله له وطيب ثراه – .

وبعد : فإنه إذا كان الحوار من حيث هو مفيد ، فإنني أَشكر صديق العمر الذي كان إصراره على وجهة نظره ، باعثاً حفزني على موافاة القاريء بهذا التحقيق ، والبحث التاريخي الذي ما كان لي أَن أَظفر به لولا إصرار صديقي على رأْيه الذي يعتقد حسب اجتهاده أَنه على صواب ، وإصراري أَيضاً على وجهة نظري التي أَثبتت الأَدلة والبراهين أَنها هي الصواب الذي لا يقبل الجدل .

كما تحدّى عبدُ العزيز عنترةَ الحضر
تحدّى أيضاً عنترةَ البدو

إذا كانت مغامرة عبد العزيز في إقدامه على فتح الرياض وقتله أَمير ابن رشيد عجلان ، تعتبر وهي المغامرة الجريئة ضئيلة الأَهمية إذا قيست بتحدِّيه عبد العزيز بن رشيد ، فارس جيله أَو (عنترة) عصره ، كما وصفه بهذا النعت القائد التركي ، أَو كما اعترف هو بنفسه ، حينما سمع أَنه منعوت بالشجاعة التي يتحلى بها (عنترة) قال : عنترة يقال إنه هرب خائفاً من الثَّور(١) حينما أَقبل عليه هائجاً ، أَما أَنا والله لا أَذكر أَنَّ الخوف تسلَّل إلى قلبي .

---

(١) قصة هروب عنترة من الثور متواترة بين العوام . يقال : إن ثوراً أقبل على عنترة هائجاً ، وأن عنترة هرب من الثور وحينما لام عنترة اللائمون قال : من الذي يُفهم الثور أنني عنترة الشجاع المخيف مرهوب الجانب الخ قصة مشهورة عندنا في نجد .

أَجل إذا كان عبد العزيز تحدَّى ابْنَ رشيد الذي تضرب بشجاعته الأَمثال ، ويوصف بحق انه (عنترة) عصره ، وإذا أَردنا أَن نَحُدَّ من وصف التركي له قلنا إنه (عنترة) عصره من حضر نجد ، فإن عبد العزيز بن سعود تحدى (عنترة) عصره من بادية جنوب وغرب نجد ، أَو (عنترة) عصره من قبيلته قاطبة ، هذا إذا لم نقل (عنترة) جيله من بادية نجد أَجمعين ، أَلا وهو ذلك البطل الذائع الصيت ، الذي لا يستطيع أَي شجاع في. عصره أَن ينتهك جواره ، أَو يخفر ذمته ، أَو يغمز قناته

وإذا كان الشيوخ الثقات يحدثوننا عن فارس من شمال نجد فيؤكدون انه إذا لاذ بجواره مستجيرٌ وجه هذا الفارس إلى مستجيره السؤال التالي : (هل أَنت مستجير بي عن حق أَم عن باطل) ؟ .. فإذا قال : عن حق أَجابه الفارس في تعال وكبرياء قائلاً : إذهب واستجر بفارس غيري ، أَما أَنا فلا أُجير إلا من يرتكب جرماً كبيراً لا يستطيع أَيٌّ شجاع أَن يجيره سواي .

أَقول : إذا سلمنا جَدَلاً بصحة رواية أَولئك الشيوخ

عن ذلك الفارس المسرف في شجاعته وعنفوانه ، فإن الفارس الذي تحداه عبد العزيز ينطبق عليه ذلك الوصف .

ظن المجرم ان وجوده بجوار وحصانة فارس عتيبة يحميه من العقاب :

لو سألت أي إنسان من سكان نجد الذين عاصروا الأحداث أو نقلوها عن الرواة الثقات الذين شاهدوا وسمعوا عن كثب ، شهرة وذيوع صيت فرسان نجد في أول قرننا الحالي ، لو سألت أي واحد من هؤلاء لقال : إن أوسع فرسان نجد شهرة في الشجاعة هو الفارس محمد بن هِنْدِي بن حُمَيد ، وهذا لا يعني أنه لا يوجد في ذلك العهد من يضارعه أو يفوقه بالشجاعة من فرسان عصره ، ولكن الذي نعني أنه قل أن يوجد من يضارعه في ذيوع صيته وشيوع ذكره بما عرف عنه من الشجاعة ، والفروسية

ومن المعروف أن الشجاع المنيع الجانب لا يستطيع أحد أن يخفر ذمته أو ينتهك جواره ، يضاف إلى ذلك أن الفارس محمد بن هندي لم يكن فارساً منيع الجانب فحسب ، بل وزعيم عشيرة (بَرْقَا) أحد جِذْمَيْ قبيلة (عُتَيبة) التي تعتبر من أكثر قبائل نجد ورجالها من

أَصلب القبائل عوداً وأَشدهم بأْساً ، ويغضب لغضبه آلاف الفرسان من عشيرته دون أَن يسأَلوه لماذا غضب ؟ ...

يمكن أَن يتصور الإنسان أَن مرتكب الجريمة إذا استجار بأَيٍّ فارس فإن هذا الفارس لا يستطيع أَن يحمي المستجير به من حاكم كعبد العزيز بن سعود ـ أَو كعبد العزيز بن رشيد في عهده ، ولكنه لا يمكن للمرء أَن يتصور أَن مرتكب الجريمة إذا استجار بالفارس محمد بن هِنْدي ولاذ بجواره يستطيع أَيٌّ حاكم مرهوب الجانب أَن يَمَسَّ مستجيرَ ابنِ هندي بسوء ، وخاصة في ذلك الوقت الذي يستطيع فيه كل رئيس قبيلة أَنْ يُكَوِّن قُوَّة مرهوبة الجانب ، وعندما أَقول ذلك الوقت أَعني قبل أَن يوحد الملك عبد العزيز سكان جزيرة العرب .

وهكذا ظن ، بل اعتقد (بتَّال السهلي) أَنه مهما ارتكب من جرائم نكراء ، ثم لاذ بجوار الفارس محمد بن هندي فإن عبد العزيز الوديع المتسامح ، الباسم الثغر ، الحريص على إرضاء قومه بصورة عامة ، وعلى كسب رضاء الفارس ابن هندي بوجه خاص ، سيكون أَضعف من أَن

ينال (السهلي) بسوء ، أَو يمسه بأَدنى أَذى ، ما دام في حمى ابن هندي ، وهذا الظن أَو ذلك الاعتقاد طبقه فِعلاً (بتال السهلي) واثقاً ثقة لا حدود لها ـ أَن لو جاء حاكم يملك قوة الدنيا ، فإنه أَعجز من أَن يناله بأَدنى عقاب .

ولسوء حظ بتال السهلي فإن غروره وعدم مبالاته بعبد العزيز من ناحية ، واعتماده على الفارس ابن هندي من ناحية أَخرى كل ذلك جعله يذهب إلى عبد العزيز بأُسلوب فيه تَحَدٍّ ملحوظ ، أَي إن السهلي لم يكفه أَن يظل متوارياً في خيمة ابن هندي ـ وسط الصحراء ـ بصورة يكون فيها لعبد العزيز العذر المبرر فيما إذا أَغضى طرفه عنه جاهلاً بمكانه المتواري فيه ـ أَو متجاهلاً ـ بل جاء إلى عبد العزيز مرافقاً ابن هندي عندما جاء هذا الفارس وافداً على عبد العزيز ، زاعماً أَنه في حصن منيع مناعة أَشد من مناعة عُقَابِ الْجَوِّ .

وحتى الفارس ابن هندي خامرت نفسه الكبرياء والغرور ، ولم يخطر له ببال أَن يواجه موقف بطولة من

عبد العزيز ، يجعل حياته هو نفسه مهددة بالمصير الذي لقيه بتال السهلي .

وهكذا جاء ابنُ هندي إلى عبد العزيز يتبختر في مشيته ، وبجانبه المجرم المغرور (بتال السهلي) الذي يبادل ابن هندي بتبختر مماثل ، جاء الاثنان ومعهما لفيف من فرسان قبيلة ابن هندي ، وكان عبد العزيز جالساً في خيمته بجواره عدد من زعماء قبائل نجد وفرسانها ، نظر عبد العزيز إلى ابن هندي ، وإذا بجانبه بتال السهلي ، يمشي كلاهما مشية الخيلاء والتحدِّي ، فقفز عبد العزيز من مكانه ، وتناول السيف الذي كان موضوعاً بجانبه ، معلقاً في عمود الخيمة ، وانتضى السيف الصارم ووثب على مرتكب الجريمة ، وبسرعة تشبه سرعة البرق الخاطف ضرب عنقه ، وإذا برأْسه يتدحرج بين قدمي مجيره ابن هندي .

ثم انحرف إلى ابن هندي ، وشهر السيف بوجهه ، وصرخ عليه صرخة لها دوِيٌّ كزئير الأَسد المتحفز للوثوب على فريسته . وقال والسيف يقطر دماً : (هو معك يا ابن هندي) ؟ !

فما كان من ابن هندي الشجاع الرابط الجأش إلا أن قال : (إهِبّ ! ! الرجل وقتلته ، وِشْ تريد مِنّي بعد) أي اكفني أذاك ماذا تريد مني ما دمت قتلت الرجل) ! !

يقول الرواة الذين شاهدوا ذلك المنظر الرهيب : إن عبد العزيز عندما رأى السهلي ، ثم انتضى سيفه ، إنقلب في أعين ناظريه من ذلك الإنسان المتواضع الوديع إلى أسد هصور ، إلى درجة أن أحد الفرسان الحاضرين في تلك الخيمة عندما لامه اللائمون قال للائميه : إنكم تلومونني لماذا لم أمنع عبد العزيز من قتل الرجل ، فلو نظرتم بأعينكم عبد العزيز بالعينين اللتين نظرت إليه بهما لما جاز لواحد منكم أن يلومني ، فوالله إنني حينما نظرته عندما انتضى سيفه تمنيت أن يكون لي منفذ أهرب منه لأنجو بنفسي ، وودت أن أخرج من خلف رُواق الخيمة .. »

وإذا كان الرواة ينقلون عن (عنترة) قوله : إنني أضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع ، فإن عبد العزيز بقتله السهيلي فاجأ الفارس ابنَ هندي مفاجأة لو

لم يكن شجاعاً رابط الجأْش لَفَرَّ من مكانه أَو انهارت قواه ، عندما قتل رفيقه وسقط رأْسه بين قدميه ، ثم شهر عبد العزيز السيف في وجهه ، قاصداً أَن يلحق ابنَ هندي برفيقه السهلي ، فيما لو بدرت منه أَية إشارة تدل على المعارضة .

ويؤكد الرواة أَنَّ ابن هندي قبل أَن يذهب إلى عبد العزيز ذهب أَولاً إلى الأَمير عبدالله ابن جلوي وجلس عنده في خيمته ، وكان السهلي يرافق ابن هندي ، فقال ابن جلوي للسهلي : (أَنصحك أَن لا تذهب إلى عبد العزيز قبل أَن يذهب ابن هندي أَولا اليه ، ويشفع لك عنده .)

فما كان جواب السهلي إلا أَن قال : (أَبْكْ أَنَا ذاهْبٍ إلى عبد العزيز بجانب عقاب نجد محمد بن هندي) أَي أَلا تعلم أَنني ذاهب بحصانة صقر نجد ؟ .

ولقد غاب عن بال السهلي ـ بأَنه لو أَتى إلى عبد العزيز بمفرده ، وطلب العفو منه لما وسع عبد العزيز إلا أَن يعفو عنه ، كما غاب عن باله أَن عبد العزيز لم يقدم

على قتله من أَجل ارتكابه للجريمة فحسب ، بل لأَنه ارتكب الجريمة وتمادى باستهتاره وغروره في مجيئه مع ابن هندي الذي وإن كان فارساً لا يبارى في ذيوع شهرته ، وبطولته ، ولكن شجاعته وفروسيته تذوبان كذوبان الملح في الماء أَمام بطولة وشجاعة وإقدام موحد شبه جزيرة العرب .

زجر الفارس المتعالي ، ثم أكرمه :

إذا كان عبد العزيز تحدَّى (عنترة) حضر نجد في عهده ، أَعني عبد العزيز بن رشيد ، إلى أَن صرعه في ميدان الحروب ، كما تحدَّى فارس قبيلة عُتيبة محمد بن هندي المشهور ، فإنه ما استطاع أَن يهضم تعالي وكبرياء فارس قبيلة شَمَّر أَو بصورة أَكثر وضوحاً فارس عشيرة (الأَسلم) من فروع قبيلة شمر ، أَلا وهو الفارس المغوار بن طُوالة ، الذي أَنَّبَهُ عبد العزيز وزجره من أَجل تعاليه .

ومن يعرف تاريخ الفارس الشجاع ضاري بن طُوالة ، يدرك للوهلة الأُولى أَنه ليس الفارس المرهوب الجانب فحسب ، بل هو الشجاع الأَبِيُّ ، الشامخ الأَنف ، الذي

لا يقرب حماه ، ولا يبيت على الضيم (1) .

كان ذلك في حوالي عام ١٣٣٥ هـ عندما نزح الشيخ ضاري عن حاكمه سعود بن رشيد غاضباً عليه ، وقد شخص نحو العراق ، وهناك استقبله (الإنجليز) استقبال الفاتحين ، نكاية بالأمير ابن رشيد ، الذي كان في جانب الحكومة العثمانية التركية ، حينما كانت الحرب العالمية الأُولى بينها وبين (الإنجليز) قائمة على قدم وساق

أراد ضاري أن يجعل نفسه بمنزلة الند فقال له عبد العزيز : لا ! !

ولما كانت الحرب بين ابن سعود وبين ابن رشيد دائرة رحاها ، حامياً وطيسها ، فقد وجد ضاري أَن الفرصة مواتية ليذهب إلى الإمام عبد العزيز عدوّ ابن رشيد اللدود ، وكان ضاري واثقاً أَنَّ ابن سعود سوف يفرح بمجيئه إليه ويعتبر قدومه عوناً يركن إليه ، كما أَنه وطيد الثقة بأَن عبد العزيز سوف لا يدَّخر وُسْعاً في أَن يكرم مثواه بكل ما تشير إليه هذه الكلمة من المعنى ، كيف لا وضاري على

---

(1) راجع كتاب المؤلف « من شيم العرب » ج ٤ ص ١٦٠ .

الرغم من كونه فارساً ذائع الصيت ، فإنه مع ذلك رئيس عشيرة (الأَسلم) التي يشكل رجالها البواسل العدد الأَوفر من قبيلة شمر .

ولم يخطيء ضاري في ظنه من حيث سرور ابن سعود بقدومه إليه ، كما لم يخطيء من حيث ظنه بالحفاوة والإكرام اللتين سينالهما من عبد العزيز ، وإنما جاء خطأ ضاري في سلوكه المتعالي الذي فعله أَمام عبد العزيز بصورة توحي بأنه وضع نفسه موضع النِّدِّ لِنِدِّهِ ، سواء من حيث لباسه أَو من حيث سلوكه حينما قدم على عبد العزيز ، أَو من حيث الخدم الذين جعلهم يحيطون به ، فكأَنه من ملوك القرون الوسطى ، والخلاصة أَن الفارس ضاري وضع لنفسه مظهراً يضاهي مظهر ملك ، لا أَنه ضاري رئيس عشيرة لا تعدو أَن تكون واحدة من عشائر قبيلة شمر الوافري العدد .

ومن خلال المظاهر التي أَحاط بها ضاري نفسه ، وهي حسب التقاليد المرعية لا يحق له أَن يظهر بها ، إذ أَن التقاليد المتبعة والعادات المرعية تقضي بأَن العقال المقَصَّب

لا يجوز أَن يلبسه رئيس العشيرة ، بل ولا حتى رئيس القبيلة ، ولا يليق أَن يلبسه إلا آل السعود وآل رشيد ، آنذاك ، خاصة في نجد ، أَما رئيس العشيرة البدوي كالشيخ ضاري ، فمهما علا شأْنه وسما مقامه ، لا يصح ان يلبس (عقال القصب) .

ولما كان الشيخ ضاري في قدومه على الإمام عبد العزيز مخالفاً لهذه التقاليد وواضعاً فوق هامته العقال المقصب ، كما يتضح من صورته ، ومفرطاً بمظاهر الابهة والزهو، اذ كان واضعاً خدماً من الزنوج السود حاملين السلاح ، ومحيطين به كما يحيطون بأَحد الحكام المطلقي السيادة .

لم يطق عبد العزيز احتمال هذا المظهر من رئيس عشيرة كسائر رؤساء عشائر بلاده ، وكل ما استطاع أَن يهضمه من هذا المظهر المتعالي أَن استقبله برد التحية ، وأَجلسه بجانبه ، ثم ذهب بعد ذلك يرسل سيلا من التقريع الذي وإن لم يكن موجهاً للشيخ ضاري بصورة واضحة ، فإن ضاري أَدرك من المعنى كما أَدرك



الشيخ ضاري بن طوالة

أَصغر رجاله سنًّا أَنه المقصود بذلك الزجر والتقريع بالذات .

الكلام الذي تحدث به عبد العزيز على مسمع من ضاري ، يعتبر في معناه صورة مطابقة للاسلوب الذي كان يتخذه النبي محمد عليه السلام ، عندما يريد أَن يؤنب شخصاً ما ، فتجده يذهب بحديثه قائلاً : ما بال أَناس يفعلون كذا وكذا الخ .. ومن هذه الإِشارة يدرك المرء المرتكب للخطأ أَنه هو المقصود بالذات .

وهكذا فعل عبد العزيز مع ضاري ، وذلك أَنه ظل يتكلم بحماسة ، يصول ويجول بصوته الجهوري قائلاً : أَرى بعض رؤساء البدو يضعون أَنفسهم بمنزلة ليست لهم الخ .. وكأَنَّ عبد العزيز بلسان حاله يقول للشيخ ضاري : هل تستطيع يا ضاري بن طوالة أَن تظهر أَمام أَميرك ابن رشيد بهذا المظهر المتعجرف ، وما دمت لم تستطع ، ولن تستطيع ، فما الذي يجعلك تتعالى عندي ؟!

وهنا نجد عبد العزيز بعد أَن أَنَّبَ ذلك الفارس بمثل هذا الأُسلوب ، أَغدق عليه وعلى رفاقه مالاً وافراً كما منحه ورفاقه أَسلحة من البنادق التي تسمى (أَمهات تاج) .

وقد ذهب ضاري من عند عبد العزيز كاسباً مادياً وخاسراً وجاهة ومعنوية . ومن المعلوم أَن فارساً أَبيًّا كضاري، لا يعبأُ بالكسب المادي ، كما أَنَّ من المعلوم أَيضاً أَن عبقرياً كعبد العزيز لا يرضى ولن يقبل بأَن يستعين برجل يرى لنفسه منزلة تضارع آل رشيد الذين هم الأَنداد في ذلك الوقت لعبد العزيز ، ولذلك افترق الاثنان ولم يلتقيا .

أَما الشيخ ضاري فقد عاد إلى أَميره سعود بن رشيد وما كان له أَن يعود إليه بسبب ما وقع في نفسه عليه من الغضب ، ولكنه عاد للأَمير سعود نجدة له ، عندما كان محاصراً في بلدة (الجوف) من قبل الشيخ نواف بن شعلان ، فجاء ضاري وعدد من فرسان شمر - إن لم أَقل كلهم - وفكوا الحصار عن أَميرهم ، وهزموا ابن شعلان وكان ضاري في مجيئه هذا مطبقاً للمثل العربي القائل : (أَنا وأَخوي على ابن عمي ، وأَنا وابن عمي على العدو) كان مجيء ضاري في عام ١٣٣٨ . وبعد أَن فك الحصار بأَسنة الرماح ،ونصال السيوف ، قفل راجعاً إلى صحرائه ، إلا أَنه بعد ذلك بسنة جاء مرة ثانية نجدة أَخرى للأَمير

الثاني عبدالله المتعب بن رشيد ، وذلك عندما كانت إمارة ابن رشيد محاصرة من قبل جنود موحد جزيرة العرب الذي مزق الإقليميات والقبلية ، كما مزقَ إلى الأَبد - التعصب الجاهلي ، وقضى على النهب والسلب وافتراس القويِّ للضعيف، قضى عبد العزيز على ذلك قضاءً مبرماً لا عودة له .

أَما الشيخ ضاري فإنه في مجيئه الأَخير ونجدته الثانية لابن رشيد قتل رحمه الله عام ١٣٣٩ .(١)

(١) راجع المصدر السابق ج ٤ - ص ١٥٠ .

الشجاع يكون الصدق خُلُقاً مطبوعاً بعرقه

كنت دائماً وأبداً أُحِبُّ مجالسة الشيوخ المسنين الذين عاشوا الأَحداث ، ولاسيما الثقات من هؤلاء ، علماً بأَن الأَغلبية من الجيل الماضي يندر جداً إن لم أَقل ينعدم بينهم المختلق ،لأَن مختلق الحديث لا يجد من ينظر إليه نظرة إجلال في ذلك الوقت ، فأَغلبهم – إن لم أَقل كلهم – ثقات لا يوجد للافتراء مكان بينهم ، ولا حتى لتزويق الحديث أَو تنميقه ، بل أَجد الواحد منهم يتحدث ببراءة تشبه إلى حد بعيد براءة الطفل وطهارة الناسك .

وعندما أَعرف شيخاً من هذا النمط خاصة إذا كان منعوتاً بالشجاعة ، فإني أَكون أَكثر ميلاً وحرصاً إلى رواية الأَحداث عنه ، إيماناً مني أَنَّ الشجاع يكون الصدق خُلُقاً مطبوعاً بدمه ولحمه ، لأَن الكذب لا يصدر إلا ممن يكون خُلُقُه الجبنُ والدناءة .



الأمير الفارس سلمان بن محمد آل سعود

وكم شعرت بنشوة وسرور عندما أُتيحت لي الفرصة للقاء الأَمير الفارس سلمان بن محمد آل سعود ـ الذي يعتبر من بقية فرسان آل سعود وأَبطالهم ، كنت عندما تتاح لي الفرصة أَذهب إليه في مزرعته ، فأَجد شيخاً لم تبدل منه المظاهر والمادة التي ابتلينا بها أَدنى تبديل ، فمنزله من طين ، وفراش مجلسه حصير ، وكل مظهر من مظاهر التقاليد والعادات العريقة باقٍ لديه لم يطرأْ عليه أَيُّ تغيير .

وحينما رأَيت ذلك الأَمير الفارس متمسكاً بتلك العادات التي انقرضت ، ذهبت وأتيت بآلة تصوير ، ورجوته بأَن يسمح لي بأَن أَحتفظ بصورة له أَعتبرها أَثرية وتاريخية .

وقد سمح بعد أَن اطمأَن إليَّ ، وكان لحسن الحظ يعرف والدي معرفة جيدة ، بل بدا لي أَنه يحترم الوالد .

وفي إحدي زياراتي له سأَلته عن معركة تسمى معركة (الصَّرِيْف) وهي خلاف المعركة التي وقعت بين الشيخ مبارك الصباح وبين الأَمير عبد العزيز بن رشيد السالف

ذكرها ، اذ هذه أي معركة الصريف[1] وقعت بين الملك عبد العزيز والأمير سلطان الحمود آل رشيد .

وهناك ذهب الأمير الفارس يحدثني عن تلك المعركة التي كان أحد أبطالها ، وما ألَذَّ استماعي للأحداث التاريخية إذا كان الراوي لها ممن شاهدوها ، وممن شاركوا فيها ، ومن الثقات كالأمير الفارس سلمان بن محمد !! .

بطولة يندر ان وقع من نوعها في تاريخ الأبطال :

ولشد ما دهشت عندما روي لى هذا الفارس قصة بطولة صدرت من عبد العزيز ، وموضوع دهشتي يعود إلى أنني لم أسمعها من الرواة ، كما لم أقرأها في الكتب التي كتبت عن عبد العزيز ، ودهشت من ناحية أخرى لأن الحادثة في حد ذاتها تعبر عن أروع شجاعة ومتانة أعصاب لا يقوم بها إلا الشجعان الأفذاذ ، بل يندر أن يقع في تاريخ الأبطال ما هو من نوعها .

---

(١) يقال للأولى في شمال نجد وقعة الطرفية ويقال للثانية وقعة الصريف . أما في جنوبي نجد فإن التسمية معكوسة والموقعان متقاربان .

وخلاصة هذه الشجاعة كما رواها شاهد عيان هي أَن عبد العزيز جرح في تلك المعركة وسقط عن جواده ، وذلك في الوقت الذي كان فرسان ابن رشيد هاجمين عليه هجوماً عامًّا ، فلم يسع فرسان آل سعود إلا أَن يكروا بقدر ما لديهم من السرعة لينقذوا حياة قائدهم عبد العزيز ، الذي باتت فرسان العدو منه قاب قوسين أَو أَدنى ، فكروا جميعاً بقصد إنقاذ قائدهم ، ويمضي الأَمير الفارس قائلاً: إننا عندما دنونا من عبد العزيز ، وأَردنا حَمْلَه صاح بنا قائلاً : دَعوني في مكاني والله لا أَرضى أَن تحملوني قبل أَن تهزموا خيل العدو الهاجمة علينا . ويسترسل الراوي فيقول : لم يسعنا إلا أَن غامرنا وكررنا كَرَّة رجلٍ واحدٍ ، فأَرجعنا فرسان آل رشيد على أَعقابهم ، مُوَلِّين الأَدبار ، ثم عدنا إلى عبد العزيز بعد هذا النصر ، فركب جوادهمنتصراً.

ولكي نعرف مدى هذه الشجاعة التي أَبداها عبد العزيز هو أَنه إذا أَراد الشعبيون أَن يطروا فارساً ما ويعدونه مضرب المثل بالشجاعة قالوا عنه : (فلان أَشجع ممن ينطح الخيل وهي كُرَّعٌ) .

معناه أَن من يصد هجوم الفرسان بهجوم معاكس ، والفرسان في أَوج هجومهم ، فإنه يكون ضرب المثل الأَعلى بشجاعته ، وبثبات جنانه ، وهكذا عبد العزيز أَقسم على قومه بأَن لا يحملوه حتى يحققوا النصر أَو أَن يموت ميتة الشجعان الأَباة الكرام .

هذه الصورة الموجزة عن بطولة عبد العزيز وثبات جنانه ظفرت بها بمحض الصدفة ، كما أَسلفت وهذا يعني أَن الذي أَهمله التاريخ أَكثر وأَوفر مما سجَّله ، وما كتبه المؤرخون من قصص البطولة لعبد العزيز التي ماتت بموت الرجال الذين عاصروه .

في مثل هذا الموقف العسكري الحرج يتقدم عبد العزيز رجاله :

سبق أَن ذكرت - في الصفحات الأُولى من هذا الكتاب - أَنني كثيراً ما استفدت من المغفور له الأَمير عبد العزيز الأَحمد السديري ، استفدت منه مما رويته عنه « من شيم عبد العزيز » بوجه خاص -و(من شيم العرب) بصورة عامة .

والواقع أَنني رويت عنه الكثير (من شيم عبد العزيز)

التي قسم منها ضاع مني ، لأَنني كنت أَعتمد على ذاكرة الشباب ، ويا للأَسف !! ، وكنت بقدر ما أَصغي مهتماً لحديثه الشيِّق عن (شيم عبد العزيز) أَشعر أَنه هو أَيضاً إذا تحدث عن عبد العزيز فإنه يتحدث بنشوة واعتزاز ،

مما رويته عنه موقف بطولي وقفه عبد العزيز في إحدى المعارك ، وإذا لم تَخُنِّي الذاكرة فإنه قال : إن ذلك الموقف هو في المعركة التي دارت رحاها في بلدة (الحَرِيق) عام ١٣٢٩ هـ يقول الراوي : إن عبد العزيز كاد يخسر المعركة ، في بداية الأَمر ، حيث تقهقر رجاله ، بل هزموا ، فما كان من عبد العزيز إلا أَن كَرَّ راجعاً في مقدمة قومه ، وقال وهو مُنْتَضٍ سيفه : (يا شَارْي الراس ب ...) . قال : هذه الكلمة وهو يضرب هامته بعرض السيف وأَتبع هذه الكلمة وثبة هجم بها منطلقاً كالسهم أَمام رجاله المهزومين ، قال : لا تقولوا ما شفاه يا أَهل العارض !![1]

فلم يسع رجال عبد العزيز بعد ذلك إلا أَن اقتفوا أَثره كارِّين بهجوم مضادٍّ هزموا به العدو ، وربحوا المعركة ،

---

(١) يعني جنوده أهل الرياض .

بعدما كانوا مهزومين ، ربحوها بفضل بطولة قائدهم عبد العزيز وشجاعته وثباته ، وإنه كما سبق أَن قلت : إنه عندما يجِدُّ الجِدُّ ويرى أَن لا محيص له من اختيار أَحد السبيلين : إما الفرار والاستسلام والخمول للدعة والجبن ، وإما المغامرة التي يربح بها النصر ، وإن كانت تعرض حياته للموت ، فإنه يختار السبيل الثاني ، سبيل الكرامة والبطولة والشجاعة على ما فيه من أَخطار وأَهوال ومهالك .

إذا كان لنوادر الرجال طاقة (فولاذية) فان عبد العزيز منهم :

لبني الإنسان طاقة محدودة في مواجهة المحن ، وفي احتمال المشاق .

محدودة في حجمها ، ومحدودة في مساحتها ، ومحدودة في ثقلها ، إلا أَن هذه الطاقة تضعف ، وتقوى بقدر ما تسمو همة المرء وتعظم إرادته ، وتعلو عزيمته ، ولذلك نجد أَبا الطيب المتنبيء أَصاب كبد الحقيقة حينما قال :

على قدر أَهل العزم تـأْتي العزائـمُ
وتـأْتي على قدر الكِـرام المكـارمُ

وتكبُرُ في عين الصغير صغارُهـا

وتصغُرُ في عين العظيم العظائـمُ

وإذا كان هناك أيضاً من أفذاذ الرجال الأبطال من لديهم قدرة على مواجهة الشدائد واحتمال المكاره ، والتصدّي لمواجهة المحن ، فإن عبد العزيز في طليعة هؤلاء الصناديد القلة .

بل في طليعة الطليعة الأفذاذ ، لا أقول ذلك مجرّدَ حَدْسٍ أو ظن ، قد يكون صاحب هذا الظن أو ذاك الحدس على خطأً أو صواب ، وإنما أقول ذلك عن يقين ، وعن علم وعن إيمان ، مستنداً في يقيني وعلمي وإيماني على الأحداث التاريخية الواضحة البرهان التي لا يرقى الشك إلى ثبوتها وصحتها .

أبيات قالها إيليا أبو ماضي تليق بعبد العزيز :

يسمع المرء أبيات شعر مليئةً بالحكمة ، وطافحة بالبيان ويؤمن إيماناً وطيداً بصوابها ووضوح معانيها وجمال بلاغتها ، وعذوبة بيانها ، وإنما السؤال الذي يصعب الجواب عليه هو : من هو القادر على أن يطبق عملياً كل

معنى من المعاني التي يعجب بها ، بل ويؤمن بها خاصة من الشعر الذي غالباً ما يهز عواطف العربي ويدغدغ شعوره ويثير حماسته وإحساسه أَكثر من النثر ؟ ...

وهل كلٌّ من قال حكمة من النثر أَو جملة بالغة من الشعر ، أَو كل من أُعجب بمعنى منهما قادر على تطبيق ما يقوله أَو يعجب به ؟ ... وهل إذا أَنشد شاعر ما أَو خطيب ما وقال كلاهما معاني زاخرة بالمدح وطافحة بالإطراء ، ومليئة بالثناء في حق حاكم من حكام عصرهما ، أَيكون ذلك المدح وهذا الإطراء لائقين بالحاكم الممدوح المثنى عليه ومطابقين لعظمته وأَفعاله ؟ ...

الجواب يأْتي من صميم أَعمال وأَفعال ذلك الرجل الذي قال الشاعر والخطيب ما قاله في حقه من إطراء وثناء وتمجيد ، فأَعمال الرجل وأَفعاله وتصرفاته هي وحدها التي تتولى الإجابة أَو النفي في ذلك .

أُقيم في دمشق مهرجان لشاعر المهجر (ايليا أَبو ماضي) أَقامه له السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية آنذاك ، أُقيم بعد كارثة فلسطين الأُولى في عام ١٩٤٨ ،

وحضر ذلك الحفل رئيس الجمهورية ورجال الدولة وأَعضاء السلك السياسي ، ووجهاء البلاد ، والقى أَبو ماضي قصيدة عصماء يحث فيها العالم العربي على مقاومة السرطان الصهيوني ، ويلومهم على تخاذلهم في قبولهم للهدنة ، وفي هذا المعنى قال :

عجباً لقومي والعدوُّ بِدارِهِـــمْ
كيف استطابوا اللَّهْوَ والأَلعابا؟!
وتخاذلت أَسيافُهم عن سَحْقِـــه
في حين كان النَّصْرُ منهم قابَا

وكان السفير عبد العزيز بن زيد حاضراً ذلك المهرجان بصفته عميداً للسلك السياسي ، وهو وإن كان لا يقول الشعر إلا أَنه يتذوقه بكل حواسه ، وإذا سمع أَبياتاً تعجبه يكتبها حالاً في مفكرته الصغيرة الحجم ، التي تحوي كثيراً من النظم والنثر المليئين بالحكمة ، ولما جاء من ذلك المهرجان أَدخل كفه في جيبه ، وقال : جئت من مهرجان اقيم للشاعر ايليا أَبو ماضي ، الذي أَلقى قصيدة من أَحسن القصائد التي سمعتها من الشعراء المعاصرين ،

وأكثر ما أَعجبني فيها أَبيات لا أَعتقد أَن معانيها تنطبق على أَيٍّ حاكم من الحكام الذين عرفناهم كما تنطبق على الملك عبد العزيز ، وقبل أَن أَسأَله عن هذه الأَبيات – تناول مفكرته وذهب يقرؤها – وهي :

إنِّي لأَزْهُو بالفتى وأُحِبُّـــهُ
يهوى الحياة مَشَقَّةً وصِعَابَــا

وَيضوع عِطْراً كلما شاءَ الأَسَى
بِيَدَيْهِ يعرِكُ قلبَـــهُ الوثابا

وإذا تَقَوَّضَ صرحُ آمالٍ بنَـــا
أَملاً جديداً من رجاءٍ خابـــا

وإذا العواصفُ حَجَّبَتْ وجه السما
جدل العواصِفِ للسَّما أَسبابـــا

وإذا نبا العيشُ الكريمُ بماجدٍ
حُرٍّ رأَى الموتَ الكريمَ صوابَـــا

فابنُ المكارم كلُّ أَرْضٍ أَرْضُهُ
وابن الضَّراغِمِ لَيْسَ يَعْدِمُ غابَا



الأمير الفارس سعد بن عبد الرحمن آل سعود

واحدة من الصدمات لا يطيقها الا من له ارادة قوية كعبد العزيز :

في فترة من الفترات تكدست الصدمات في وجه عبد العزيز ، وتوالت عليه المحن ، وكثرت عليه الشدائد ، وتضاعفت عليه النكبات ، وازدادت عليه الكوارث ، وأُغْلِقت أَمامه الأَبواب ، وتعاوت عليه الذئاب ، عن يمينه وعن شماله ، ومن أَمامه ومن خلفه ، بل وتجسد عليه خطر الأَعداءِ من كل فج عميق ، وانقلب عليه الأَقارب كالحيات والعقارب ، وضاقت به الأَرض بما رحبت .

كان ذلك في سنة ١٣٢٨ هـ عَدُوٌّ غزاه من الغرب وهو الشريف حسين الذي اعتقل الأَمير سعدا شقيق عبد العزيز وسنده في الملمات ، وعَدُوٌّ نقض العهد من الشمال ، وهو ابن رشيد . وأَعْدَاء أَعَدُّوا الْعُدَّةَ لحربه من الشرق وهم قبيلة (العُجْمان) وقوم قريبون من بلاده ، ناصبوه العِداء وهم (الهَزَازِنَة) أمراء (الحَرِيق)،ونفر من أَشجع أَبناء عمه الادنين وأَفرس الأَقربين ، وقع بينه وبينهم سوء تفاهم فانحازوا بجانب الأَعداءِ ، ووصل سوء التفاهم إلى

الاصطدام المسلح ، كل ذلك وقع في ظروف متقاربة ، وإذا كانت هذه العقبات الجسام تفتتت وذابت أَمام إرادة عبد العزيز (الفولاذية) . فإنه بعد هذه الكوارث بخمس سنوات اصطدم بما هو أَهم من ذلك ، أَلا وهو مقتل الأَمير سعد شقِيقه ، الفارس المغوار ، الذي كان بمثابة جيش عرمرم يستند إليه أَخوه عبد العزيز في المعارك الحامية الوطيس ، والذي إذا وثبت فرسان قومه هاجمين كان في مقدمتهم ، وإذا انسحبوا فهو الحامي لمؤخرتهم ، هذا البطل دفع حياته على مذبح هذه الوحدة التي نعيشها الآن بأَمان واطمئنان .

ومما جَسَّدَ حُزْنَ الإمام عبد العزيز على شقيقه ، وضاعف هول هذه الصدمات ، أَنه في نفس المعركة التي قُتل في يومها الأَمير سعد ، أُصيب عبد العزيز القائد البطل برصاصة في بطنه اندلقت من موقعها أَمعاؤه ، وظلت الرصاصة مختزنة في خاصرته ، وما من طبيب ولا مستشفى ولا علاج ، ولو تسمم ذلك الجرح والتهب لما شوهدت اليوم هذه الوحدة المباركة ، ولَمَا رأَينا هذا الوِئام الأَخويِّ الذي

تم بين أَبناء البلاد ، ولما تمت لنا هذه الخيرات التي شملت وعمت أَبناء هذه البلاد ، ولما تمتعنا بهذا الأَمن الذي لا يتمتع به أَي بلد من بلاد العالم ، كما يتمتع به سكان شبه الجزيرة العربية ، كل هذا وذاك ـ بفضل الله تعالى الذي أَمَدَّ في عمر عبد العزيز، وأَفسح في أَجله ـ حتى سعدت البلاد بفضل الله ثم فضل جهوده وجهاده ، ونضاله المرير وكفاحه المتواصل الذي لا يعرف الكلل ، ولا يركن إلى اليأس ، ذلك الكفاح الذي من ثمرته ونتائجه أَن بات مواطنوه يتمتعون برغد من العيش ، ويرفلون بخيرات من كنوز الأَرض ، قَلَّ أَن يشاركهم بذلك أَحد في أُمة العرب ، بل قلَّ أَن يشاركهم في هذا الأَمن وتلك الكنوز أَحد من سكان المعمورةِ ، تسمى المعركة التي قتل فيها الأَمير سعد وأُصيب بها الإِمام عبد العزيز تسمى وقعة (كَنْزَان) وكانت في سنة ١٣٣٣ .

إذا كان بين الرجال من تزيده الصدمات قوة فهو عبد العزيز :

كانت تلك الإِصابة الخطرة التي أُصيب بها عبد العزيز موضع سرور وغبطة في نفوس أَعدائه ، ظنًّا منهم أَنها إن لم

تكن قاتلة لعبد العزيز فإنها ستحدث شللاً يقعده عن القيام بأيّ عمل ، وإن لم تكن هذه ولا تلك ، فإنها – على الأقل – ستحدث في نفسه ذُعْراً ينقلب بعده من شجاع مقدام يقتحم الأخطار ، ولا يهاب الموت ، إلى جبان رعديد ، مخلوع القلب ، يطلق ساقيه للريح ، مجرد ما يسمع دوِي الرصاص ، على ما جرت به العادة في بعض الأحيان التي عرفها عرب نجد في خبرتهم وتجاربهم ، مما هو موروث من صميم حياتهم الشاقة ، وخلاصتها تشير إلى أن بعض الرجال إذا أُصيب بجرح خطير فإنَّ هذه الإصابة تؤثر عليه نفسياً ، بقدر ما كانت مؤثرة جسدياً ، فينجم عن ذلك عوامل نفسية ، تجعله يظل دائماً مخلوع القلب – لا يدنو من وطيس الوغى ، متصوراً أن رصاص الأعداء مصوب كله إليه ، غير أن هذه الإصابة يكون لها أحياناً ردود فعل معاكسه ، إذ من بين شجعان الرجال الأفذاذ من إذا أُصيب بجرح خطر ، فإن شجاعته هذه تتضاعف عما كانت عليه .

---

(١) كنزان جبل بقرب مدينة الأحساء ، وقعت المعركة عنده .

وهذه النظرة مأخوذة من طبائع الحيوان التي عرفها بدو الصحراء أكثر من غيرهم ، بحكم ظروف حياتهم القاسية ، فهناك نوع من الحيوان عرفوه من تجاربهم - مجرد ما تناله إصابة تنهار قواه ، ويعجز عن الفرار ، فضلاً عن الدفاع بينما هناك نوع من الحيوان كالأسد والنمر والفهد وأمثالها إذا أُصيب بجرح مهما كان ذلك الجرح خطراً ، فإنه يكون أشد شراسة ، وأمضى عزيمة ، وأشد إقداماً وفتكاً -ولن يتراجع عن افتراس من أصابه، ما دام فيه عرق ينبض .

قلب عبد العزيز سرور أعدائه إلى مآتم ، ومآتم رجاله إلى أفراح :

كأن عبد العزيز بعد هذه الكوارث التي توالت عليه التي لو لم يكن منها إلا مقتل شقيقه سعد ذلك (العضيد) البطل ، الذي يستند إليه في الملمات لو لم يكن إلا هذه لكفى بها مصيبة كبرى ، وصدمة عظمى ، كيف وقد أُصيب هو فوق هذا وذاك بإصابة كادت تقضي على حياته التي أحيى بها شعباً بكامله .

كان لسان حال عبد العزيز يقول في تلك الأيام الحالكة

السواد معاني الأَبيات التي قالها الأُستاذ كامل التونسي : -

إن كنتَ تختبر الرجالَ فإنني
طودٌ على مَرِّ الزمان مُجَـرِّبُ
فادْفع خطوبَك إنْ أَردتَ فإنَّ لي
قلباً يلين له الحديد فَيُثْقَـبَ

أَو ما قاله أَبو الطيب المتنبي :

تنكَّر لي دهري ولم يَدْرِ أَنـني
شجاعٌ وأَحداثُ الزمانِ تَهُوُن
وبات يُريني الدَّهْرَ كيف اعتداؤُهُ
وبتُ أُرِيْه الصَّبْرَ كيف يكُونُ

بقدر ما أَدخلت الرصاصة التي أَصابت عبد العزيز سروراً في نفوس أَعدائه ، فقد أَحدثت حزناً مؤلماً في نفوس أَعوانه ورجاله ، بل كادت تحدث وَهْناً يشبه اليأْس في نفوسهم ، لو لم يقلب عبد العزيز سرور أَعدائه إلى أَحزان ومآتم ، ويجعل حزن أَعوانه وبُؤْسهم ينقلب إلى أَفراح وأَهازيج ، (وعرضات حربية) . وسرور وغبطة ،وايمان بالنصر ،وآمال سعيدة ، وبعيدة المدى .

كيف انقلبت الأُمور بهذه السرعة ؟ ... الجواب : أَن البطل عبد العزيز عقد القران بإِحدى فتيات القبائل ، وتم زواجه منها في نفس اليوم والليلة اللتين أُصيب بهما بذلك الجرح الخطير .

وفي ليلتها أُقيمت الأَفراح ، وغمر السرور قلوب رجاله المقاتلين من جهة ، ومن جهة أَخرى خيم الهمُّ والغمُّ والبؤس والحزنُ على أُولئك الأَعداء .

هذا نوع من شجاعة عبد العزيز العسكرية والفكرية ، ونوع من جهاده ونضاله وكفاحه الذي نتجت عنه وحدة بلادنا التي يسعد بها جيل بعد جيل ، بعون الله ومشيئته .

ولا بد بعد ذلك من أَن نعود إِلى الوراء قليلاً لنذكر طرفاً من شجاعة عبد العزيز النفسية والبدنية ، وأَود أَن أَبدأ بالأُولى :

شجاعة عبد العزيز النفسية :

لم تكن شجاعة المرء على قهره نفسه أَقل من شجاعته في الحروب ، بل إِذا عدنا إِلى معنى حديث الرسول محمد

عليه السلام بدا لنا الأَمر واضحاً أَن شجاعة النفس وجهادها يعلوان شجاعة الحروب، والجهاد العسكري ، بدليل الحديث الذي ورد عن النبي (صلعم) عندما قال وهو عائد من إحدى الغزوات : « رجعنا من الجهاد الأَصغر إلى الجهاد الأَكبر » وهو جهاد النفس .

لقد استطاع عبد العزيز أَن يجاهد نفسه ويقهرها ، وهو في ريعان شبابه ، وعنفوان فتوته ، وشجاعة عبد العزيز في قهره لنفسه التي لا تقل عن شجاعته العسكرية ، وقهره لأَعدائه ، قصة هذه الشجاعة أَوردتها في مؤلفي « من شيم العرب »(١) ويجدر بي أَن انتهز هذه المناسبة لأَوردها بنصها الحرفي .

الكلمة التي غيرت مجرى حياة الفتى :

كانت (الكويت) في مطلع القرن الحالي الهجري كخلية النحل ، تعجُّ باللاجئين السياسيين ، وكما أَن (لبنان) اليوم مأْوى لكل عربي ساخط على حكام بلاده ،

---

(١) ج ٣ ص ٢٣٠ .

أَو مطارد من قبل حكومته ، فكذلك كانت الكويت مأْوى للساخطين على حاكم نجد وقتئذ ومركزاً للطامحين في سيادة الجزيرة ، وكان من بين الفئة الأَخيرة فتى في شرخ شبابه ، لم يتجاوز العقد الثاني من عمره ، يمتاز عن فتيان مجتمعه بصفات كثيرة منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي .

فأَما الصفات المادية التي يمتاز بها فهي أَنه رحب الذراعين ، قمحي البشرة ، عاري الأَشاجع ، فارع الطول قَلَّ أَن يضارعه أَي فتى في قامته المديدة المهيبة .

وأَما صفاته المعنوية فإنه كان محطًّا لآمال الفتيان المغامرين ، لا لكونه من سلالة أَسرة كانت صاحبة السيادة في شبه الجزيرة حقبة من الزمن ، بحكم أَن ذلك العهد يؤمن أَهله بالمجد الموروث أَكثر من إيمانهم بالمجد الموهوب المكتسب ، لا ليست الآمال معقودة على الفتى من هذه الناحية فحسب ، بل لأَن صفات الزعامة مطبوعة في شخصيته ومؤهلات القيادة متوفرة في ذاته . وأَخلاق السيادة بارزة على مُحَيَّاه .

وتوفر تلك السجايا في شخصية فتى كعبد العزيز خليقة بأَن تجعل منه زعيماً لجيله ، وسيداً لقومه ، سيادة يعترف بها مواطنوه بفضله من أَجل فضله ، بصرف النظر عن مجد أَهله المكسوب . وإنما من أَجل مجده الموهوب .

فعبد العزيز من الرجال الذين اختارهم الله ليجعل منهم قادة لبني الإِنسان .

وخلاصة القول : هو أَن كل من عرف أَخلاق عبد العزيز عن كَثَبٍ ، أَو درس مُثُلَهُ وشيمه بتدبر وعمق ، حكم له بدون تردد ، بأَن في كيانه رصيداً لا ينضب معينه من مؤهلات الزعامة ، وصفات القادة .

الأَمر الذي لو وقف عبد العزيز بمفرده في وسط ساحة فيها ملايين من البشر ، ووقف زعماء عصره في نفس هذه الساحة وأُجري له ولهم انتخابٌ شعبي لما وجد من يفوقه بكسب الأَصوات ، بل ولم يجد من يدنو منه بالأَسهم التي سينالها بشرط أَن يكون هذا الانتخاب حُرًّا لا مجال فيه للتحيز العنصري ولا القبلي . فبحالة كهذه سوف يربح عبد العزيز الأَصوات الشعبية على أَي زعيم ينافسه في

عصره ، لا لأنه ابن سعود ومن قوم لهم سيادة عريقة ، ومجد تليد ، بل لأن الله وهبه أخلاقاً وخلقاً لا يضارعه بهما أيٌّ زعيم من زعماء زمانه .

وإذا كان الله وهب عبد العزيز ثروة (من الشيم) ونصيباً وافراً من العقل وحظاً كبيراً من المنطق والبيان ، وكنزاً من الحكمة والحلم ، فإنه وهبه أيضاً طلعة بهية مهيبة ، وزاده بسطةً في الجسم تفرض من نفسها لنفسها الهيبة والاحترام والوقار .

وبقدر ما كان خلقه مغرياً للفتيات الحسان اللواتي يحاولن ما استطعن فتنته وجلبه إليهن ، ليصطدنه بسلاحهن الماضي ، الذي يأسر القلوب ، ويستهوي الأفئدة ، كانت أخلاقه حافزات الفتيان المغامرين المتمردين ، على أن يستثمروا تلك الصفات لأنفسهم ، وأن يبذلوا ما استطاعوا من الجهد الذي يمكنهم من حراسة الفتى من غزو الجنس اللطيف لفؤاده ، وهيمنتهن على مهجته .

الفتى على مفترق الطرق :

كانت ناعسات الطرف يحاولن إغراء الفتى بشتى

الوسائل ، ومختلف الأَسباب ، وكان الفتيان واقفين لهن بالمرصاد ، وكانت الفاتنات يعرفن أَنهن إذا لم يَصِدْنَ الفتى الآن ، فإنه من غير اليسير عليهن أَن يظفرن به عندما يشغله رفاقه المهووسون بالمغامرات والثورات التي يؤمن بها ، بل أَرْدْن أَن يظفرن به قبل أَن يشغل هو نفسه بتنفيذ ما يدور في مخيلته من طموح يدغدغ آماله ، وأَمانٍ تداعب أَفكاره ، ولذلك كن يترقبن غفلة الفتيان بفارغ الصبر من ناحية ، ويحاولن إغراء الفتى بشتَّى وسائل الإِغراء من ناحية ثانية ، ليرمينه بسهامهن التي لا تخطيء الهدف .

كان الفتيان لهن بالمرصاد ، وعلى جانب كبير من اليقظة والانتباه ، لكل ما يبدينه من حركات وسكنات نحو فتاهم معقد آمالهم ، ومحط أَمانيهم ، وكانوا يعلمون أَن أَي كسب تناله الفاتنات فإنه سيكون على حساب أَمانيهم التي يحلمون بتحقيقها ، على يد فتاهم الذي يتوسمون به جميع صفات الزعامة والقيادة .

وهكذا ظل المتنافسان يصطرعان ، وظل الفتى على مفترق الطرق ، وهو إلى جانب الفتية أَميل منه إلى جانب

الساحرات ، وإن كان مهدداً من الأَسهم المسلطة عليه منهن في كل لحظة وحين .

وفي غفلة من الفتيان نصبت إحدي الفتيات الماهرات بالصيد شبكتها لتصطاد الفتى ، وحينما دنا الفتى من الشبكة وأَغراه الطُّعم ، وأَوشك أَن يُلْقِي نفسه في قلب الفخِّ المنصوب ، عند ذلك أَخذ حذره وتراجع ، وراح يفكر بالاستعانة بواحد من رفاقه ولكن رفيقه هذا لا يرضى هذا المسلك ، لذلك الفتى الذي يبني عليه هو ورفاقه آمالاً بعيدة المدي .

ولذلك نجد أَن ذلك الرفيق كان جريئاً ومخلصاً عندما قال للفتى ما معناه : لقد كنتُ عظيم الأَمل بمستقبلك الزاهر ، فسيح التفاؤل بما أَتوقعه فيك من مواهب القيادة الكامنة في شخصك ، قويّ الإِعجاب بنجابتك وفتوتك ، كان ذلك قبل أَن يبدو لي منك ما بدا في هذه الليلة السوداء ، وكنت أَعتقد أَن طموحك إلى لذة المجد ، يحول دون هذا المسلك .

كان الفتى يصغي إلى ناصحه المخلص الوفي بكل

حواسه ، وما إن انتهى الناصح حتى تراجع الفتى من ساعتها ، ولم يفكر أَن يسلك سبيلاً كهذا حتى توفاه الله بعد ما بلغ العقد الثامن من العمر ، وعاد يحدث نفسه بالمعنى الذي أَشار إليه أَبو الطيب المتنبي :

ولا تحسبنَّ المجـدَ زِقًّا وقينـــة
فما المجد إلا السيف والفتكة البِكْرُ
وتركُكَ في الدنيا دَوِيًّا كأَنَّمَــا
تداولُ سَمْعَ المرءِ أَنْمُلُهُ العشْرُ

هذا هو عبد العزيز شجاع في المعارك الحربية ، وشجاع في قهره لنفسه . وهو في أَوج فتوته .

شجاعة عبد العزيز البدنية :

تحدثت في هذا الفصل عن شجاعة عبد العزيز العسكرية التي قل أَن يضارعه فيها أَحد من رجال العرب في عصره ، وذكرت قسماً من بطولته التي تحدى بها (عنترة) عصره عبد العزيز بن رشيد ، كما وصفه القائد التركي السالف الذكر ، كما ذكرت تحدِّيه لفارس قبيلة (عُتَيْبَةَ) الذي يجدر به أَن يلقب (عنترة) بادية نجد ، وهو الفارس

المشهور محمد بن هِنْدِي ، وعندما انتهيت من شجاعة عبد العزيز العسكرية ذكرت طرفاً مما أُتيح لي العثور عليه عن شجاعته النفسية ، وها أنذا أَذكر قسماً من شجاعته البدنية تلك الشجاعة التي تعبر أَوضح التعبير عن قوة بأسه وصلابته وجلده واحتماله للآلام ، وعدم هلعه ، وصبره البدني على ما أَلمَّ به من طعنات مؤلمة واصابات إن لم تكن قاتلة فإنها بالغة الخطورة ، ومن الصعب على قدرة الإنسان المحدودة أَن يتحمل بدنه الإصابات والطعنات التي تحملها عبد العزيز .

ويأتي إعجابنا بهذا البطل . بأَنه تحمل تلك الإصابات في ظرف لم يكن فيه أَيٌّ علاج للجريح عندما يصاب بطعنة رمح ، أَو ضربة سيف أَو سهم رصاصة .

أيستطيع الإنسان الوسط أن يُطيق إصابات كهذه ؟

مما يزيدنا إيماناً بحكمة الله تعالى هو أَنه حينما خلق الإنسان في أَحسن تقويم ، وفضله على سائر مخلوقاته في العقل والمنطق ، والخلق والأَخلاق ، فَضَّل بعض بني

الإنسان على بعض في الرزق كما قال تعالى « والله فضَّل بعضكم على بعض في الرزق »(١) .

والرزق شامل بمفهومه الرزق المعنوي والمادي ، بل إن المواهب المعنوية أَفضل من رزق الماديات ، فالإِنسان صاحب المواهب الأُولى جدير به أَن ينال عن طريقها الأَرزاق المادية ، وليس العكس .

وتفضيل المواهب هو أَيضاً درجات ، كتفضيل الرزق المادي ، فكما أَن هذا درجات ، فإِن تفضيل المواهب كذلك درجات فهذا إنسان وآخر فوق الوسط ، وثالث وسط وهناك من هو دون الوسط ، أَو لا شيء أَو كامل في ناحية ، ووسط في الأُخرى ، أَولا شيء في ناحية ـ وكامل ناحية أُخرى الخ ... والمثل الدارج يقول : (الكمال في سائر البشر نقص في حقِّ الأَنبياء والمرسلين) ـ أَو كما يقال : الكمال لله وحده .

وإذا كان كمال المواهب درجات كما سلف ذكره فإِن

---

(١) سورة النحل ٧١ .

لعبد العزيز الحظ الوافر من هذه الدرجات ، بكل معنى من المعاني ، وقد أَشرت آنفاً إلى شيء مما أَحطت به علماً (من شيم عبد العزيز) .

وإنه يسرني أَن أنتهز هذه المناسبة لأَذكر ما استطعت معرفته من شيم صاحب الترجمة التي تعبر عن احتماله لآفاتٍ لا أَقول : يعجز عن احتمالها سائر بني الإنسان ، بل يعجزً عن احتمالها أَضخم الجِمال البُزْلِ ، الذي إذا أُصيب بجرح أَو آفة انتهت الفائدة منه – سوى الاستفادة من لحمه – بينما نجد عبد العزيز عندما لقي ربه وجد في جسمه ثلاثة وثلاثون (ندبة) وأَثر جرح . ولا عجب ما دام أَن المعارك التي خاض غمارها أَكثر من مئة معركة (١) .

كان عبد العزيز جرّاح نفسه :

حينما يصاب أَحدنا بجرح طارىء ، أَو مرض مفاجىء يستلزم أَن يذهب إلى جراح ليجري له (عملية) فإن مجرد اسم (العملية) يخلق التشاؤم والنفور في نفس المرء ، هذا مع وجود المخدرات . والمسكنات التي تحقن في

(١) الزركلي نقلاً عن « تاريخ البلاد السعودية » .

جسم المريض بصورة يغيب بها عن وعيه ، حتى ولو قطع عضو من أعضائه لا يحس بذلك ، فكيف إذا كان المخدر معدوماً ، أو إذا كان المريض لا يقبل أن تجرى له (عملية) يغيب فيها عن وعيه ، بل إذا كان المصاب بجرح لديه قوة وإباء يجعلانه يرى أن احتمال الأذى مهما اشتدت وطأته أهون على كبريائه وعظمته ورباطة جأشه من أن يخدر جسمه ويغيب عن وعيه .

قرأت في كتاب « شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز » للاستاذ خير الدين الزركلي العبارات الآتي نصها : قال الدكتور رشاد فرعون : أردت أن أُخرج رصاصتين استقرتا في بطن جلالته أثناء إحدى المعارك ، فأتيت بالمخدر (البنج) لأحقنه به .. قال لي : ما هذا :

قلت – البنج .

قال – لماذا ؟ ..

قلت للتسكين – حتى لا تتألم ..

فضحك .. وقال : دَعْك من هذا ، وبعد البنج ماذا تنوي أن تفعل ؟ ..

قلت : بعد ذلك أَشق بالمبضع جلد البطن في موضع الرصاص وأُخرج الرصاص ثم أَخيط الجلد ..

فطلب مني المبضع . وتناوله بيده ، وشق موضع الرصاص ، وأَخرج الرصاصتين .

ثم قال لي : الآن تستطيع خياطة الجرح ، ولا تحتاج معي إلى البنج ...

قال رشاد : لقد كان أَقوى من الأَلم – رحمه الله(١) .

الأحداث يؤيد بعضها بعضا :

كنت في بيروت في شهر ربيع الأَول ١٣٩٤ الموافق ٤ ابريل ١٩٧٤ م) – وهناك التقيت بالصديق سفير بلادنا في الولايات المتحدة الأَميركية سابقاً الشيخ عبد الله الخيال الذي كثيراً ما آنس به لدماثة خلقه وسعة ثقافته ، وعذوبة حديثه إن تكلم ، وحسن إصغائه إن استمع ،

---

(١) حرصاً مني على إثبات الحقائق من مصادرها ، اجتمعت بالدكتور رشاد فرعون في الرياض بتاريخ ١٣٩٤/١١/١٤ (الموافق ١٩٧٤/١١/٢٨) وسألته عن الحادثة (المشار اليها أعلاه . وكان جوابه نَصّ ما أورده الاستاذ الزركلي .

وبمناسبةالحديث عن شجاعة عبد العزيز وجلده ، ذهبت أَتحدث عما أَشرت إليه في (العملية) التي قام بها عبد العزيز بشقه بدنه وإخراج الرصاصتين منه ، وعندئذ ذهب الخيال يروي قصة مماثلة للأُولى ينقلها عن الدكتور عبدالله الدملوجي العراقي الجنسية ، والذي كان أَول وكيل لوزارة الخارجية في المملكة العربية السعودية ، وهو ممن حضر مع الملك عبد العزيز عدة معارك في حروبه ، على اعتبار أَنه من أَقدم الرجال الذين قدموا إلى عبد العزيز من الخارج ، يقول الشيخ الخيال : إن الدكتور الدملوجي حدثه عن رصاصة دخلت في جسم عبد العزيز في إحدى المعارك القديمة ، وأَن الدملوجي بصفته طبيباً ـ حاول أَن يستعمل مهارته الطبية لإخراج الرصاصة ، إلا أَن عبد العزيز لم يدع له مجالاً يقوم به ، بل قام هو بنفسه وأَخرج الرصاصة من بدنه ، ودمه ينزف ، وكأَن لم يكن هناك فيه أَية إصابة من هذا النوع ، أَو كأَن الرصاصة في جسم جمل بازل لا في جسمه هو .

قوة عبد العزيز الدينية منسجمة مع شجاعته الفكرية والقلبية :

إذا وهب الله إنساناً شجاعة في عقله وقلبه وقوة في بدنه ، ثم رزقه بسطة في جسمه طولاً وعرضاً متناسقاً ، كعبد العزيز . فإن الله رزقه خيراً كثيراً .

وقد توفرت هذه الصفات كلها لعبد العزيز ، فمن حيث قوته البدنية فقد رويت عن مصدر ثقة وله منزلة سامية – قوله : إن عبد العزيز عندما كان في شرخ شبابه كان يرفع بأسنانه (كيس السكر) الذي يزن مائة كيلو غرام . كما سمعت هذا المصدر نفسه يتحدث في مجلس يضم عدداً من الناس يقول : إنه في يوم من أيام نضوج عبد العزيز كان رجاله الفرسان يقومون بما يسمى (عرضة الخيل) – وهو ما يشبه أحياناً ما يسمى (المناورات العسكرية) – فيتطارد الفرسان في حالة كهذه مطاردة كما يتطارد الفرسان المتحاربون ، ولكن بنوع سلمي وفي إحدى المناسبات التي جرت فيها مطاردة الفرسان التي على هذا الشكل وهي مناسبة كان الإمام عبد العزيز مشاركاً فيها رجاله ، جاء الأمير فيصل الحمود الرشيد ، ودنا منه وقال

مازحاً ـ العبارة الشعبية التي يقولها الفارس عادة إذا دنا من فارس يريد أن يطعنه أو يطرحه أرضاً ـ فما كان من عبد العزيز إلا أن حرف جواده ، ولحق فيصلا ، ورفعه من صهوة جواده بسهولة ، ثم وضعه فوق الأرض ، كما يضع أحدنا الإناء الخفيف من مكان إلى مكان .

مع العلم ان فيصلاً من أطول الرجال وأوفاهم جسماً .

راهبٌ في الليل وأسدٌ في النهار :

أَشَدُّ ما أفسد الدين الإسلامي هو تصور بعض رجاله أنه مجرد تبتل وعبادة وصوم وصلاة فقط ـ ونسي هؤلاء أن الدين الإسلامي إصلاح اجتماعي شامل لكل معنى من معاني التخلف والفساد ، وهو نظام صالح في كل زمان ومكان ، ولم يبلغ الإسلام ما بلغه من رقيٍّ وسموٍّ وفتوحات هزت عروش الأباطرة والأكاسرة والقياصرة في مشرق الدنيا ومغربها ، إلا عندما كان قادة الإسلام والجنود المسلمون رهباناً ونساكاً في الليل ورجال حرب وبطولات في النهار .

ولذلك ـ نجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ عندما رأى شخصاً تبدو عليه علامات الاستكانة ضربه بدرته

قائلاً : (لا تمت علينا ديننا) فالدين الإسلامي لم يكن يوماً من الأَيام دينَ رَهْبَنَةٍ ونسك لا غير ، بل هو دين روحانيات وعبادات من ناحية ، ودين قوة وبطولة وجهاد ونضال من ناحية أُخرى : (اعمل لدنياك كأَنك تعيش أَبداً ، واعمل لآخرتك كأَنك تموت غداً) هذا هو الدين الإسلامي الذي دعا إليه محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، وسار على هديه الخلفاء الراشدون . ومن تبع أَثرهم من قادة العرب والإسلام الصالحين ، وقد كان عبد العزيز واحداً من أُولئك القادة ، فكان يقوم الثلث الأَخير من الليل متهجداً إلى أَن يؤذن الفجر ، مع ما عرف عنه من بطولة ونضال وشجاعة خارقة .

كان عبد العزيز يعمل بالحكمة أنّى كان مصدرها

هناك نوع من الرجال ينظرون إلى الحكمة من حيث فائدتها ومن حيث صوابها ، بصرف النظر عمن تصدر منه هذه الحكمة ، خلاف بعض الرجال الضيقي الأُفق ، الذين يقيسون الحكمة بمقياس منصب الرجل ووجاهته ، ومنزلته الاجتماعية أَو المادية ، حتى ولو كان هذا أَجوف

وفارغاً من كل الكفاءات وانما وصل إلى تلك المنزلة وتلك الوجاهة بمحض القضاء والقدر لا عن مقدرة وكفاءة .

لا لم يكن عبد العزيز ولن يكون من هذا النوع ، وإنما هو من النوع الأَول .

في أَول فتوته قام آخر الليل ، وأَشعل سراجا وظل يتلو القرآن ، ولم يكن قبل ذلك فعل شيئاً من هذه العادة ، وإنما قام بما فعله هذه المرة بسبب أَرَقٍ أَلمَّ به ، وحينما أَصبح نهار الغد جاء إليه شيخ مُسِنٌّ من قومه ، وقال له : (إن قيامك الليلة الماضية في تلاوة القرآن ذكرني يا عبد العزيز بسنة جدّك فيصل الذي كان إذا دنا الفجر قام وتهجد ، يصلي ويتلو القرآن إلى الفجر) .

ويؤكد الرواة الذين نقلوا حديث هذا الشيخ عن عبد العزيز أَنه منذ أَن سمع تلك الحكمة من ذلك الشيخ إلى أن لقي ربه لم يترك قيام الليل متهجداً يتلو القرآن ويصلي حتى ينبلج الفجر .

وهكذا كان عبد العزيز شجاعاً عسكريا ، وشجاعا

فكرياً ، وشجاعاً نفسياً في قهره لنفسه وشجاعاً في قبوله الحق من أي مصدر كان ، وشجاعاً بعبادته لربه ، وأخيراً شجاعاً وهو في آخر رمق من حياته .

شجاعٌ وهو في النّفَس الأخير :

كان حرصي على تتبع شيم عبد العزيز قديماً ولا أستطيع إلا أن أعترف بأن ذلك الحرص لم يكن مصدره في بداية الأمر ناشئاً عن عزيمة تحدوني إلى أن أصدر كتاباً عنه ، بقدر ما كان مصدره يعود إلى شغف يدفعني إليه هيامي في الشيم أنّى كان مصدرها .

وإذا كنت عندما أشتاق إلى حفظ ما يصل إليّ (من شيم العرب) لم أنوِ في بداية الأمر - الكتابة فيها إلا بعد أن توفرّ لديّ ثروة من تلك الشيم ، فإن الأمر كذلك بالنسبة لما حظيت به (من شيم عبد العزيز) أي إنني لم أنو الكتابة فيها إلا بعد أن توفر لديّ كنز ثمين لا يجوز أن أهمله. بعد ذلك عقدت العزم على إصدار هذا السفر ، وهذه الحقيقة سبق أن أشرت إليها في غير هذا المكان - من كتابي هذا - وإذا كنت أعدت تكرار هذه العبارة فإن

قصدي أَن أُؤكد للقاريء أَنني بعد أَن عقدت العزيمة على تـأليف هذا الكتاب ، ذهبت أَسعى ما استطعت وراء العثور على ما أَمكنني الإِلمام به (من شيم عبد العزيز) متتبعاً لشيمه وبطولاته وشجاعته وإِبائه وعنفوانه الذي ظل ملتزماً به وهو على فراش الموت ، هكذا رويت عن الشيخ عبد الرحمن الطبيشي رئيس الخاصة الملكية ـ الذي حاز رتبة وزير دولة ـ والذي توفي الملك عبد العزيز غفر الله له وهو أَقرب رجاله إِليه تلك الساعة .

يقول الطبيشي : إِن الأَطباء جاءوا إِلى الملك بإِناء يفرغ فيه (الماء) بدلاً من أَن يتعب نفسه بذهابه إِلى بيت الراحة ، ولا سيما وهو يعاني مرض الموت ، فما كان من الأَسد الجريح ـ على ما رويته عن الطبيشي ـ إِلا أَن إِنتخى بنخوته المعروفة قائلاً : (أَنا أَخو نورة) ثم أَخذ الاناء وضرب به عرض الحائط ، ضربة كان لها دوي ، ويؤكد الطبيشي أَن أَثر الضربة في الجدار ظلَّ إِلى يومنا هذا .

خُذُوا عَنِّ التَّارِيخَ مَادُمتُ بَينَكُم حَيَّاً

سمعت أَمير (الجوف) سابقاً ووزير الزراعة المرحوم

عبد العزيز بن أَحمد السديري ، الذي ورد اسمه في هذا الكتاب أَكثر من مرة ، سمعته يقول : إنه حضر ذات يوم مجلس الملك عبد العزيز وهو يتحدث حديثاً حول الوقائع التي عاشها ، وهناك قال : (خذوا عني التاريخ ما دمت بينكم حيًّا فكم من حادثة تاريخية سوف تموت معي) .

ليت شعري لو قدر للملك عبد العزيز أَن يكتب مذكراته كما هو شأن بعض الرجال الذين كتبوا تاريخ حياتهم ، وأَصبح لكتابتهم هذه شأن وإقبال لدى القراء ، على الرغم من أَن ما كتبه بعضهم عن تاريخ حياتهم يعتبر تافهاً فيما إذا أَردنا أَن نقيسه بتاريخ حياة عبد العزيز التي كلها بطولات ، ومغامرات وغارات ، وفتوحات .. ؟

ترى كم تكون قيمة مذكرات عبد العزيز التي يكتبها بيده ؟ ... وإلى كم لغة سوف تترجم ؟ ... فيما لو كتب مذكراته هذا البطل .

أَجل ما دام أَن عدد الكتاب الذين كتبوا عنه بلغوا حتى الآن ثمانين كاتباً ، ومنهم من كتب أَكثر من مجلد ، وكل كاتب يؤلف عن عبد العزيز سيجد مادة

دسمة ، يملأُ بها قسماً كبيراً من صفحات كتابه ، محاولاً جهده أَن يكتب عن مختلف جوانب حياته كتابة لم يسبقه أَحد من المؤلفين الذين كتبوا قبله أَو يبلغ مبلغه المؤرخون الذين سيكتبون من بعده .

وما دمت أَتصور أَنني أَوردت في كتابي هذا تسعين في المائة من صفاته ، كلها على ما أَعتقد أَو ما يخيل إليَّ أَن هذه التسعين لم يتعرض للكتابة فيها عن عبد العزيز أَي كاتب من أُولئك الثمانين . وإِذا قال قائل : إِن تصوري هذا مبني على الوهم . فإِن خمسين في المائة على أَقل تقدير مما أَوردته لم يسبق لأَي كاتب من أُولئك الثمانين أَن أَورد شيئاً من معاني الأَحداث التي أَوردتها في هذا السفر .

ولكني مع ذلك أَكاد أَجزم بأَنه سيأتي من بعدي من يكتب عن صاحب الترجمة أَشياء ذات معانٍ ، وحوادث جوهرية أَوفر مما كتبت ، وأَكثر مما أَوردت ، بدون أَن يكرر معنى أَو لفظاً من المعاني التي كتب عنها المؤلفون الثمانون ، أَو ما كتبته . في كتابي هذا .

عناية الله والقلب الشجاع المؤمن

لقد استطردت في عرضي لهذه الحقيقة ، وذلك من أجل أنني عثرت على حادثة لم أسمع بها إلا منذ وقت قريب من الرواة وهي حادثة لا يعرفها إلا الرجال الذين تدور الحادثة عليهم ، أولئك القوم الأربعة الذين انقسموا إلى قسمين قسم أراد الفتك بعبد العزيز وقتله ، وقسم وقف من هذا القسم موقف المدافع دونه ، بل والمهدد بقتل محاولي الاعتداء على عبد العزيز في الفترة التي كان البطل واقفاً بين يدي الله يصلي متجهاً بقلبه إلى بارئه ، وتاركاً ظهره لأولئك القوم الذين أرادوا الفتك به لولا عناية الله التي وقته وحفظته من مكيدتهم وشرهم ، والقصة من حيث هي تعبر أبلغ التعبير عن شجاعة عبد العزيز التي كانت مغامرة ليس بعدها مغامرة ، ولا مثلها شجاعة ، تلك الشجاعة الفذة التي يستمدها من إيمانه بالله . وخلاصة القصة : في إحدى المعارك التي خاضها عبد العزيز مع ابن رشيد والتي تخلى فيها عنه قسم من البدو مما أتاح لقوم ابن رشيد ان يحققوا النصر ، بعد أن كان النصر في بداية المعركة لعبد العزيز .

بعد أن انتهت المعركة ذهب عبد العزيز إلى رؤساء تلك القبيلة ممتطياً جواده ، وعندما وصل إليهم قال متجاهلاً تخليهم عنه : « يا بني فلان ، لا لوم عليكم ولا علينا ، الحرب يوم لنا ويوم علينا ، فوالله لئن أحياني الله لآخذن لكم الثأر من ابن رشيد الذي أحل بكم الهزيمة » ، قال عبد العزيز هذه العبارات ، أو ما هو قريب منها قاصداً أن يظهر نفسه جاهلة للأمر الواقع ، وهو أن أسباب هزيمة قومه لم تكن من ابن رشيد ، وإنما جاءت بصورة مباشرة من رؤساء هذه القبيلة ومن هؤلاء بالذات الذين يخاطبهم ، فهم الذين هربوا من المعركة ، وفعلوا ذلك عن عمد وتصميم لا عن جبن ، قاصدين أن يحدثوا البلبلة في صفوف المقاتلين من قوم عبد العزيز كما حدث ذلك فعلاً .

وليس هذا هو موضوع إعجابنا ببطولة صاحب الترجمة ، وإنما موضوع الإعجاب ـ كل الإعجاب ببطولته ـ أنه عندما حان وقت الصلاة قال عبد العزيز : فَلْنُؤَدِّ الصلاة وليتقدم أحدكم إماماً يصلي بنا ، ـ فقالوا : ما من أحد يستطيع أن يتقدم على الإمام ، فضرب كفيه

بالأَرض متيمماً وقال عبارات تعبر أَبلغ التعبير عن أَن في نفسه ريبة من أَن يفتك به هؤلاء القوم الذين هم أَصدقاء في الظاهر وأَعداء في خفايا نفوسهم ، والعدو المستتر أَخطر من العدو الظاهر ، قال عبد العزيز عندما استقبل القبلة : (اللهم إني أَعوذ بك من همزات الشيطان) ثم رفع يديه إلى السماء وقال (الله اكبر) أَي تكبيرة الاحرام « فكأَنه يقول بقلبه مناجياً ربه : الله أَكبر من كيد الكائدين ، والله أَكبر من غدر الغادرين ، والله أَكبر من مؤامرة المتآمرين ، فهو خير منقذ ومعين ، وهو أَرحم الراحمين » .

في تلك الفترة التي وجه عبد العزيز وجهه إلى ربه انقسم القوم قسمين : قسم غلبت عليهم الضغينة والأَحقاد ، وأَشار أَحدهم إلى الآخر بأَن ينتضي هذا وذاك سيفيهما ويهويان، فهدد القسم الثاني مشيراً بالسيوف إشارة خفية تعني أَنه إذا حاول أَحدكما أَن ينتضي سيفه قاصداً الفتك بعبد العزيز . فإننا سوف نباشر الهجوم عليكما . قبل أَن تنالا منه .

وهكذا حفظ الله عبد العزيز من نتيجة مغامرته التي كادت أن تذهب فيها حياته لولا عناية الله - ولولا اتكاله على العزيز القدير (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) نعم المولى ، ونعم النصير .

مَنِ التجأ إلى الله فهو حسبه

سوف أَثبتُ بالأَسطر القادمة ، أَن مصدر شجاعة عبد العزيز جاءت من قوة إيمانه بالله الواحد القهار ، هذا الإيمان بالعزيز القدير هو وحده الذي يتدرع به البطل في جميع مراحل حياته ، وأَشد ما يكون التزاماً به عندما تتأَزم الأَمور ، وتبلغ الشدائد ذروتها ، ولم يكن ثمة أَي مخرج ينفذ منه المرء ولا أَية قدرة للإنسان على مواجهة هذه المحن وتلك الشدائد الحاسمة ، في حالة كهذه نجد عبد العزيز يكون أَشدَّ إيماناً بالله وأَكثر اعتماداً عليه .

وأَعتقد جازماً أَن المرء لم يرزق قوة أَشد مفعولاً وأَمضى سلاحاً من قوة الإيمان ،

وإذا كان الإيمان من حيث هو قوة لا يعادلها أَية قوة في مصارعة الأَحداث الجسام. فإن الإيمان بقضاء الله وقدره

يبعث في الإنسان قوة الإرادة ، والعزم والشجاعة والإقدام .

ومن ينظر إلى سيرة عبد العزيز نظرة إمعان وتبصر ، ويتدبر مراحل حياته بدقة وعمق ، يجد أَن مفتاح شخصيته هو إيمانه الراسخ الوطيد بالله تعالى ، فهذا الإيمان الممتزج بدمه ولحمه ، هو وحده الذي يلجأ إليه عبد العزيز في كل نائبة من نوائب الدهر ، التي غالباً ما تكون أَقوى من طاقة الإنسان المحدودة .

ومما لا جدال فيه أَن كل شيء في الحياة يمكن أَن يُقْهَر إلا قوة الإيمان فإنها أَعزُّ من أَن تقهر ، وأَمنع من أَن تهزم .

وإذا كانت حياة هذا البطل كلها انتصارات وفتوحات ، وإن اعتراها أَحياناً شيء من النكسات التي تزيده قوة بإيمانه ، فيقلب هذه النكسة إلى انتصار ، فإن السِّر في انتصاراته هذه وفي فتوحاته تلك يعود إلى قوة إيمانه بخالقه ليس إلا .

ذكرت في أَكثر من مناسبة في هذا الكتاب وفي غيره من مؤلفاتي ، أَن كثيراً من الأَحداث ذات الأَهمية التاريخية دَرَست ، واختفت بموت الرعيل الأَول من أُولئك الرجال الذين عاشوا تلك الأَحداث فانطمس أَثرها بموت أَبطالها .

والأَحداث التي جَرَّ عليها الزمان أَذياله متباينة الأَهداف بأَدبنا الشعبي (١) ومنها ما هو ذو طابع أَخلاقي كشيم العرب – التي كادت أَن تضيع لو لم أُوفق في تلقي ما استطعت العثور عليه ونقله من صدور الرواة وحفظه وتدوينه في حينها ، ثم طبع ذلك ونشره فيما بعد ، مع اعتقادي الوطيد أَن الذي حظيت بجمعه (من شيم العرب) ما هو إلا النذر القليل من الشيم والمثل العربية ، هذا ما هو على

---

(١) عندما الف الأديب الشاعر محمد الأحمد السديري كتابه « أبطال من الصحراء » سئلت عن رأيي في هذا الكتاب ، وكان السائلون لهم ما لهم من المآخذ على المؤلف كشأن أي مؤلف منذ بدء التأليف – فقلت للسائلين : لم يكن من حسنات المؤلف إلا أنه أبرز إلى حيز الوجود تراثاً من أدبنا القومي كان عرضة للفناء والضياع .

الصعيد العربي العام ، أَما الشيء الذي على الصعيد الخاص (من شيم عبد العزيز) التي أَنا بصدد الكتابة عنها فإِن الأَمر كما سبق أَن ذكرت مراراً بأَن الذي اختفى بموت أُولئك الرجال الذين عاصروا البطل أَكثر مما دُوِّنَ ونشر .

ومما هو جدير بالذكر أَنني بعد أَن انتهيت من تسويد كتابي هذا اجتمعت بالأَمير نايف بن عبد العزيز آل سعود الذي كنت قد أَطلعته على مسودة الكتاب ، بصفته ممن أَطمئن وأَركن كثيراً إِلى آرائه ، عملاً بالنهج الذي أَسير عليه في جميع مؤلفاتي ، التي أَرغب بأَن لا أَستبد برأْيي في تأْليف كتاب منها ، حرصاً مني على الابتعاد عن الزلل ما استطعت إِلى ذلك سبيلاً .

وقد نصحني الأَمير نايف بأَن أَتصل بالشيخ محمد الصحابي ، مؤكداً أَن لديه قصصاً ذات صلة بالهدف الذي أَصبوا إِليه ، ولما لم يكن لي بالشيخ الصحابي صلة سابقة كما كنت أَظن أَنه لا يعرفني ، بقدر ما كنت أَعرفه معرفة جيدة فقد رجوت ابن عمه الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ ـ وزير المعارف سابقاً ـ بأَن أَذهب

بصحبته إلى الشيخ الصحابي فلم يبخل عليَّ الشيخ عبد العزيز مشكوراً ، وذهبت معه وذلك في ١٧-١١-١٣٧٤ (الموافق ١-١٢-١٩٧٤) حيث وجدنا الشيخ جالساً في منزله ، وبعد تبادل التحية قدمني إليه الشيخ عبد العزيز - وكنت أَظن كما ذكرت أَنه لا يعرفني - ولكنه قال كلمات توضح أَنه يعرفني .



الشيخ عبد العزيز
بن حسن
آل الشيخ

لسوء الحظ أَنه لم تتح لي فرصة الاجتماع بالشيخ الصحابي إلا بعد أَن فقد بصره ، وربما كان ذلك هو السبب الذي جعلني لم أَتصل به ، أَو بالأَحرى جعلني لا أَظن بأَنني أَجد لديه ما وجدته من أَخبار الأَحداث التاريخية التي لم أَسمع الكثير منها لولاه .

ولا عجب فالشيخ الصحابي من الرجال الذين عاصروا

عبد العزيز ، وساهموا معه في الميدان العسكري والإداري فمن حيث الميدان العسكري فإنه حضر مع عبد العزيز عدة غزوات ـ منها غزوة أَو معركة (جراب) الكائنة في ٧ ربيع أول ١٣٣٣ (الموافق ٢٤ـ١ـ١٩١٥ م) .

تلك المعركة التي وقعت بين الإمام عبد العزيز والأَمير سعود بن رشيد ، وهي من أَشد المعارك التي وقعت في تلك الفترة من الزمان وأَعنفها ، كما حضر قبلها وبعدها عدة معارك وغزوات .

وأَما الأَعمال الإدارية التي تولاها الصحابي فقد كان أَميراً للطائف عدة سنوات ـ كما كان أَميراً (للعمال) أَي يتولى جباية الزكاة من إبل وغنم ـ ولم يفقد الصحابي بصره إلا بعد أَن تجاوز سن الفتوة والشباب ، عندما استطرد في ذكري حياة الصحابي فإن قصدي بأَن يعرف القاريء أَن الرجل ممن عاصروا عبد العزيز ، وساهموا معه في شتى الميادين العملية .

سبق أَن حدثني الأَمير نايف عن قصة رواها عن الصحابي . ولما كنت شديد الحرص بأَن لا أَكتفي برواية

الحادثة إلا من مصدرها ، إذا كان على قيد الحياة ، فقد حرصت أَن أَنقل الحادثة التي سمعتها من الأَمير نايف من مصدرها وهو الشيخ محمد الصحابي ١) ، وهو في إعتقادي يناهز العقد التاسع ، مديد القامة . وان كان عرض منكبيه آخذاً من طوله ، تبدو على محياه ملامح الوسامة ، ولئن كان فاقداً بصره فانه لم يفقد أَية حاسة من حواسه .

وأَكثر شيء أَعجبني بالصحابي هو بساطته . ووضوح بيانه في عرضه للأَحداث ، بعيداً عن التكلف ، وقد وجدتني وأَنا أُصغي إلى حديثه أَشعر كأَنه ينقلني إلى مشاهدة الأَحداث التي يرويها بأُسلوبه الرزين الهاديء ، فهو في عرضه للحادثة يعكس الصورة الحية عن أُولئك الرجال الذين نقلت عنهم ما استطعت العثور عليه (من شيم العرب) بصورة عامة وما حظيت بالحصول عليه (من شيم عبد العزيز) بنوع خاص .

---

(١) الصحابي هو محمد بن عبد العزيز بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة السلفية قدس الله روحه ــ وكلمة الصحابي كنية خاصة به لا صلة لها بآبائه .

كان أول حديث بدأته مع الشيخ الصحابي بعد أن احتسيت القهوة والشاي – عملاً بالأصول المرعية التي اعتاد عليها المواطنون القدامى بأن القادم لا يتحدث عن هدفه الذي يسعى من أجله إلا بعد أن يشرب القهوة ، هو أن سألته عن الحادثة التي سمعتها من نايف وما إن أصغى إليَّ بكل حواسه واستوعب استفهامي عن تلك القصة حتى ذهب يرويها بعبارته الواضحة حيث قال : هناك غزوة لعبد العزيز يقال لها غزوة (حَوْمان) كانت في عام ١٣٢٩ . كان عبد العزيز في تلك السنة قد عقد العزم هو والشيخ مبارك الصباح بأن يغزوا قبيلة الظَّفِير لاعتدائها على حدودهما إلا أن الشيخ مباركاً الصباح – عدل عن رأيه أما عبد العزيز فإنه نفذ عزيمته ، غازياً تلك القبيلة التي لاذ رجالها بالفرار مُحْتَمِينَ بمدينة (الزُّبير) وتبع عبد العزيز الهاربين إلى أن عسكروا في (سفوان) القريب من مدينة (الزبير) وحينما شعرت الحكومة التركية أن عبد العزيز يهدد مدينة الزبير في مكانه هذا خيرت بادية الظفير بين أحد الأمرين الآتيين : إما أن تخرج القبيلة من مدينة الزبير لتدافع عن نفسها وتنازل عبد العزيز ، وأما أن تدفع

ضريبة خمسة جنيهات عن كل ناقة ، وجنيهاً واحداً عن كل شاة ، فاختارت القبيلة الأَمر الثاني .



الشيخ محمد الصحابي وعن يمينه حفيده عبد المحسن وعن يساره المؤلف .

ومضى الصحابي يقول :

كان عبد العزيز عندما عسكر في (سفوان) قد ترك الثقيل من مؤونته في مكان يسمى (اللِّصَافة) ولم يكن معه في غزوته هذه إلا الخيل ، والجيش - اي الإبل النجائب - وكان الأَمرالطبيعي بعد أَن حقق هدفه أن يعود إلى (اللصافة) التي فيها المؤونة بكاملها ، وهكذا عاد

مسرعاً ، ولكنه عندما بات في موقع قريب من (اللصافة) لم يشعر في الصباح إلا وقد رآى النار مشتعلة في ذلك العشب اليابس - واصبح لهيبها يطوق قوم عبد العزيز من جميع الجهات ، وخاصة الجهة المؤدية إلى (اللصافة) أما الجهة التي جاء منها القوم ، فإن السبيل إليها متيسر ومفتوح ، ولكن عودة القوم إلى سبيلهم الذي جاءوا منه سوف تعرضهم لأَن يموتوا ظمأً على اعتبار أَن الآبار التي فيها الماء بعيدة بعداً يحول دون وصولهم إليها دون الهلاك ظمأً ، فكر عبد العزيز ودبر ، ووجد أَن خير وسيلة يتخذها أَن أَمر الفرسان أَن يركبوا خيولهم لعل الخيل تحرث بحوافرها الأَرض ، بصورة تكون هذه الأَرض المحروثة حاجزاً يمنع سريان النار ، كان الإِجراء سليماً ، ولكن الذي حصل أَن لهيب النار كان أَقوى من أَن تقهره حوافر الخيل ، ويؤكد الشيخ الصحابي أَن لهيب النار بدأ يدنو من القوم ، وأَصبح للرواحل حنين « وجضيض» من هول المنظر المخيف الرهيب ، وفي حالة كهذه حتى الشجعان الأَفذاذ البواسل يفقدون اتزانهم ، لأَنه لم يكن أَمامهم عدو ينتضون

سيوفهم لينازلوه ويقاتلوه دفاعاً عن النفس ، وإنما أمامهم نار مشتعلة تلتهم الأَخضر مع اليابس ، مع العلم بأَنه لم يكن في الصحراء ـ على حدِّ ما نقله الراوي ـ إلا العشب اليابس .

ويمضي الصحابي قائلاً : وإذا كان جميع أُولئك القوم أُصيبوا بذهول أَفقدهم صبرهم وشجاعتهم ، بما فيهم العدد الوافر من الفرسان المجربين ، فإن عبد العزيز لم يفقد إيمانه بالله الذي كان دائماً وأبداً هو مصدر ثباته وشجاعته وإنتصاراته لا على انداده من أَعدائه الشجعان الأَبطال ، بل مصدر إيمانه حتى على النار التي لم ينجه من هولها والتهامها له ولقومه إلا إيمانه بالله القائل : (ادعوني استجب لكم).

ـ صدق الله العظيم ـ في تلك اللحظة التي بلغت فيها الروح الحلقوم وضاقت بالقوم الأَرض بما رحبت ، وبدأ لهيب النار يدنو من الرجال زاحفاً رويداً رويداً ، في تلك اللحظة التي تقلصت بها الآمال ، ونضبت بها الأَفكار ، ولم يكن ثمة ملاذ ولا ملجأ يركن إليه إلا الله جل شأنه



الملك عبد العزيز يتلو ورده

وعلا سلطانه ، في هذه اللحظة الحرجة التي أَصبح بها الموت من القوم قاب قوسين أَو أَدنى ، صاح عبد العزيز قائلاً : هلموا إلى الله ! ! فما وسع القوم إلا أَن وقفوا صفًّا واحداً يتضرعون إلى الله ، ويتقدمهم عبد العزيز رافعاً يديه إلى السماء سائلاً ربه النجاة .

ويؤكد الشيخ الصحابي أَن السماء لم يكن بها أَية بقعة من السحاب عندما ابتهل عبد العزيز إلى ربه ودعاه ، بل يؤكد الراوي شاهد العيان أَن الفضل كان وقت اشتداد الصيف ، ومع ذلك كانت إستجابة الباري الكريم لعبد العزيز المتضرع إليه بقلب مفعم بالإيمان أَسرع من لمح البصر ، فسرعان ما أَنزل الله المطر المدرار الذي لم يخمد النار فحسب ، بل سالت منه الأَودية . وذهب القوم يملأُون منه قِرَبَهُمْ ويسقون رواحلهم ، وخيولهم .

وهذا مما يجعلنا نؤمن إيماناً راسخاً بأَن مصدر شجاعة عبد العزيز الخارقة جاءت من قوة إيمانه بالله واتكاله عليه (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فنعم الحسب ونعم الوكيل .

لم تكن هذه الحادثة التي سمعتها من الشيخ الصحابي واحدة من نوعها ، كما لم يكن غريب علي استماعي لحادثة مشابهة لها ، بل سبق أن سمعت حادثة من نوعها هي : حينما أَراد الحكام في سورية أَن يقضوا على عادات الغزو والنهب والسلب التي اعتاد عليها البدو منذ العهد الجاهلي وما قبله ، فكرت حكومة سورية في عهد الانتداب الفرنسي بأَن خير وسيلة للقضاء على تلك العادة السيئة أَن تجند رجالاً من أَبناء البادية ليكونوا شرطة صحراء ، ليحرسوا الضعيف من افتراس القوي الغازي ، عملاً بالمثل القائل : (لا يفل الحدِيدَ إلاَّ الحديدُ) . وكان من بين الرجال الذين جندوا لهذه المهمة شخص يدعى (مبارك السعيد) من سكان مدينة حائل ويلقب هذا الشخص بغراب لشدة سواده .

عندما سمعت القصة التي رواها الصحابي عدت بذاكرتي إلى القصة التي وقعت مع مبارك السعيد الأَمر الذي جعلني لا أَرى ما سمعته من الصحابي غريباً علَيَّ ، بل سبق أَن نقل

لي أكثر من واحد من الرواة الثقات قصة مماثلة للقصة التي رواها الصحابي وهي قصة مبارك السعيد : كان مبارك لا يترك فرضاً من فروض الصلاة ، وكان الآمر الفرنسي للجماعة الذين فيهم مبارك يهزأ به ، عندما يراه يؤدي فريضة الصلاة ، وفي إحدى السفرات التي كان حرس الصحراء يسيرون في الفلاة ضلوا جميعاً السبيل ، وتاهوا في تلك الصحراء المجدبة ، وكان الفصل صيفاً شديد الحرارة .

وحينما بلغ الظمأ منهم درجة أشرفوا فيها على الهلاك ، جاء القائد الفرنسي وقال لمبارك ساخراً وهازئاً به : ها اضرب سلام من شان الله وهذا الله يريد ان يميتنا من الظمأ ؟ ! فأجابه مبارك قائلاً : (الله كريم يا كافر) . يقول الرواة الثقات أنه لم تمض فترة وجيزة بعد كلمة مبارك التي أجاب بها الكافر بقوله : (الله كريم يا كافر) إلا وقد هطلت الأمطار ، وسالت الأودية ، على الرغم من أنه على حدّ ما قاله الرواة لم يكن في السماء أية علامة تشير إلى السحاب ، ولم يسع مبارك السعيد إلا أن ذهب إلى الفرنسي وقال له (ألم أقل لك إن الله كريم يا كافر) ؟ !

حينما ذكرت للشيخ عبد الله المسعري قصة الملك عبد العزيز التي نقلتها عن الصحابي ، كما ذكرت له قصة مبارك السعيد ذهب استاذنا المسعري يروي لي قصة مماثلة لما نقلته عن الشيخ الصحابي - للقصة الأُخرى يقول الشيخ المسعري إن شخصاً من أهل بلدة (الحوطة) التي هي بلدة الشيخ المسعري - ويدعى هذا الشخص ناصر بن حاضر - وهو من الرجال المعروفين بالصدق والصلاح ، ذهب ناصر في سيارة من الرياض . متجهاً إلى بلاده وبينما هو في منتصف الطريق - أَصاب السيارة عطل ، وكان الفصل صيفاً - وقد نفد الماء الذي يحمله ناصر في السيارة ، وعندما سلم أَمره إلى الله متهيئاً للموت رفع طرفه إلى السماء سائلاً الله أَن ينجيه من ميتة بهذه الصفة ، فما ان انتهى من تضرعه إلى الله حتى أَمطرت السماء سيلاً غزيراً سالت الأَرض منه أَودية ، فارتوي منه ناصر بعد أَن كاد يموت ظمأً .

قد يبلغ المرء من العمر عِتِيًّا ، ويعيش أَحداثاً جساماً ،

ولكنه ليس لديه من الذاكرة أو من حسن التعبير والعرض ما يجعله يتحدث أَو يكتب عما رآه أَو شارك فيه من أَحداث . وقد نجد شخصاً يحسن التعبير ولديه من قوة الذاكرة ما يجعله يعرض مشاهداته عرضاً رائعاً شيقاً ، ولكنه لم يكن موضع ثقة ان تحدث ، ولا هو بأَمين في روايته إن كتب .

إذن أَصبحت التركة التي أَعني محصورة بمفهومها ومعانيها على الشيوخ الذين تجتمع في الفرد منهم جميع الصفات الثلاث التي هي الشيخوخة وقوة الذاكرة ، وصدق الرواية .

وربما قائل يقول : ماذا يكون موقفي إذا قدر لي أَن أَجد شيخاً توفر فيه الشرطان الأَولان اللذان هما قوة الذاكرة وحسن التعبير ، بدون أَن أَعرف مدى ما يستمتع به هذا الراوي من صدق الحديث وأَمانته بالنقل ؟ !

الجواب على ذلك هو :

أَولاً ـ أَن التجارب أَعطتني درساً جعلني أَعرف وأَميز

بين حديث المرء الصادق من الكذاب ، أعرف ذلك من الوهلة الأُولى التي أَصغي فيها إِلى حديثه وفقاً لما قاله الشاعر العربي :

والعين تعرف مِنْ عَيْنَيْ مُحَدِّثها

إن كان منْ حِزْبِها أَوْ من أَعادِيْها

ثانياً ـ من النادر جدًّا أَن أَجد بين الرعيل الأَول من الشيوخ القدامى شخصاً لديه القدرة على الأختلاق والتزييف ، فالشيوخ الأَوائل يشعرك المرء منهم في حديثه أَنه يتكلم على سجيته ، بروح بريئة كبراءة الطفل ، بعيداً كل البعد عن قلب الحقائق ،

الأَمر الثالث : والمهم هو أَن الإِنسان الذي عرف عنه الكذب لم يكن خفيًّا بين مجتمع ذلك العهد ، بل تجده واضحاً ومعروفاً كالعلامة السوداء في جسد الدابة البيضاء ، وذلك لعدم وجود الكذاب بين ظهراني رجال ذلك الجيل المرتبط أَهله بالشيم والمثل ارتباط الروح بالجسد .

أَراني دائماً وأَبداً عندما أَجد حادثة مدونة في كتب

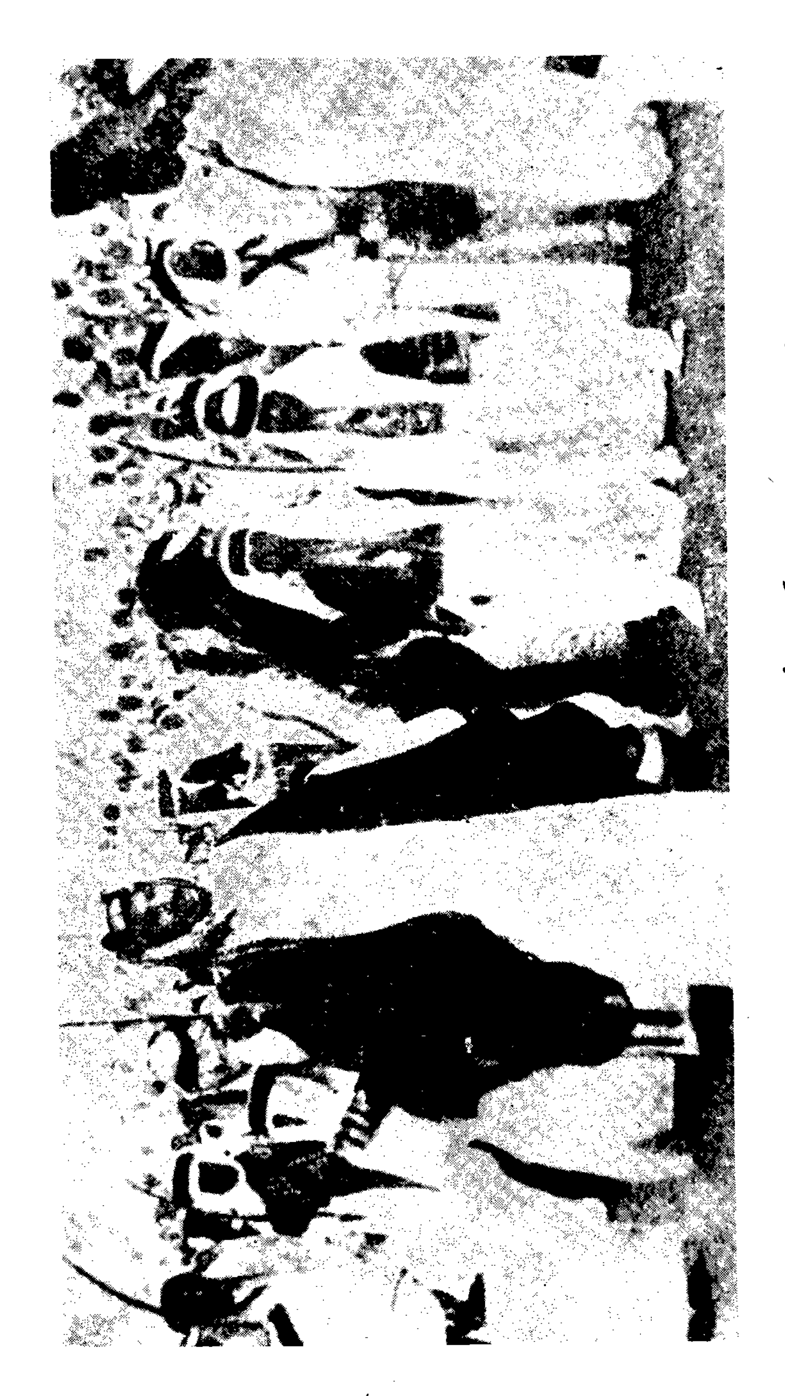
المؤرخين ، ثم أَجد ما يعارضها مما أَنقله عن الشيوخ الثقات الذين عاصروا عبد العزيز في حالة كهذه أَعود إلى الأَخذ برواية الشيوخ ، ولا عجب فالمؤلفون يروون الأَحداث رواية من سمع ، بينما الشيوخ يروونها رواية من رأَى – وقديماً قالت العرب : (ليس من سمع كمن رآى) .

ما أَكثر ما نجد في كتب المؤرخين عن عبد العزيز حادثة يشعر القارىء أَنها مبتورة ، أَو أَنها تفتقر إلى تكملة أَو أَن لها بداية تختلف عن البداية التي كتبها المؤرخ ، والأَمثال على ذلك أَكثر من أَن تحصى ، وإنما يطيب لي أَن أُورد مثلاً على ذلك وهو :

إذا كان الأُستاذ خير الدين الزركلي من أَوفر المؤرخين حظاً في استقصائه للحقائق في كتابه « شبه الجزيرة في عهد عبد العزيز » فإن أَي شخص يقرأ الرسائل الموجهة من عبد العزيز إلى الشريف حسين – والمدونة في كتاب الزركلي – سوف يتصور [1] أَن عبد العزيز يخاطب الشريف حسين من مركز الضعف والاستسلام .

---

(١) ص ٣١٢ .



الملك عبد العزيز شاهراً سيفه أثناء (العرضة) وخلفه أبناؤه وحاشيته

ما وجدته في صدور الرواة
مخالفًا لما كتبه المؤرّخون

وإذا كان أي شخص لا يعرف أخلاق عبد العزيز سوف يتصور أن رسائله للشريف حسين صادرة عن ضعف منه ، فإنني أجد لهذا الشخص عذراً يبرر له هذا التصور ، وذلك أنني أكاد أتصور هذا الأمر فيما لو لم أعرف (من شيم عبد العزيز) أنه دائماً وأبداً يحاول أن يدفع الشر بالحسنى ، ويحرص على السلم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

(ولم يقدم على المعركة إلا وهو مضطر) كما جاءت هذه الجملة في جريدة « ام القرى »(١) .

هكذا كان عبد العزيز لا ينتضي السيف حتى يطرق جميع أبواب السلم .

---

(١) العدد الصادر في ١٣٦٤/٦/١ .

وإذا كنت أقدم رواية الشيوخ الثقات على ما كتبه المؤرخون ـ كما ذكرت آنفاً ـ فإن إقدامي على هذا العمل لم يكن عبثاً بقدر ما هو نتيجة لتجربة مارستها مراراً وتكراراً .

وعلى سبيل المثال رسائل عبد العزيز للشريف حسين السالفة الذكر ما كان لي أن أعرف ما وراءها من بطولة سينفذها عبد العزيز في غارة يصبها على الشريف حسين فيما إذا تمادى شريف مكة بعناده وأصر على العداوة والتحدي .

هذه الحقيقة لم أسبر غورها وأعرف خفاياها إلا من الشيخ محمد الصحابي الذي أرشدني إلى معرفة البطولة والنخوة اللتين أراد عبد العزيز أن يفاجىء بهما الشريف حسين فيما إذا استمر في إصراره على اعتقال شقيق عبد العزيز ، الأمير سعد ، ويحسن بي أن أنقل ما رويته عن الشيخ الصحابي بنصه : يقول الصحابي : إن الإمام عبد العزيز حينما اعتقل الشريف حسين الأمير سعد بن عبد الرحمن اتخذ سبيلين سبيل التودد والتلطف للشريف حسين،

لكي يطلق الأَمير سعدا ، كما أَعد نفسه لاتخاذ سبيل البطولة والنخوة لينقذ أَخاه بقوة السيف وأَسنة الرماح ، فمن حيث السبيل الأَول فإِنه بعث للشريف حسين عبد العزيز بن تركي ومحمد بن هِندي أَمير عشيرة (برقاء) عن قبيلة (عُتيبة) وفارسها ، وعبد الرحمن بن ربيعان أَمير عشيرة الرُّوَقَة من قبيلة عتيبة . وحملهم الرسائل الطافحة بالتودد والتعظيم والتفخيم للشريف حسين ، وحدد عبد العزيز يوماً معيناً قال فيه لهؤلاء الموفدين : إِذا جاء اليوم المعين بدون أن يأتيني ما يؤكد أَن الشريف حسين أَطلق الأَمير سعدا فإِنه أَي عبد العزيز ـ سوف لا يتأَخر عن أَن يصب غارته على معسكر الشريف حسين ، وأَنذر رجال وفده بأَن يبتعدوا عن معسكر الشريف حسين فيما إِذا جاء اليوم المعين ، إِلا أَن النتيجة جاءت حسنة حيث أَطلق الشريف حسين الأَمير سعدا (وكفى الله المؤمنين القتال) .

وهكذا كان عبد العزيز يدفع السيئة بالحسنة ، ويطرق أَبواب السلم بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، ولا يُقدم على الحرب إِلا بعد ما يرى جميع أَبواب السلم موصدة في وجهه ، أَو لم يكن هو القائل :

أَحِبَّ أَنَب العافيهْ وأَشْرِيهــا
وَأَسُوق عُمْــري والدّبشْ
وِأَلَى عضْــوا عِذَّالْهــمْ
رَدَّيْت لِرْقَــابَ النِّمَــشْ

يقال : إن لقمان الحكيم يقسم الرجال من حيث رجاحة العقل وسموّ الإدراك إلى ثلاثة أَقسام :

الأَول ـ ذو الرأْي السديد الذي لا يخطيء الهدف ، وهو مع ذلك يأخذ الرأي الصائب مهما كان مصدره .

الثاني ـ يضارع الأَول من حيث سداد الرأي ، ولكن آفته إعتزازه برأيه إلى درجة الغرور بصورة لا يقبل الركون إلى أَي رآي يخالف رأيه .

الثالث ـ لا رأْي له ، ولكنه يذعن لرأي ناصحيه ، صواباً كان أَو خطأً .

فإذا كان ما قاله لقمان الحكيم صواباً في تقسيمه الرجال على هذا النمط ، فإننا نجد عبد العزيز من النوع

الأَول ، فهو على الرغم من سداد رأْيه ، وعمق تفكيره وبعد نظره ، وغزارة تجاربه ، رغم ذلك نراه في كل مراحل حياته يشاور في أَمره الرجال الذين يركن إلى رأيهم وتجاربهم ، والرجال الذين يشاورهم عبد العزيز في بداية مراحل نضاله وفي تأْسيسه لهذه الوحدة ، وعندما كان إماماً ، كانوا من بيئته ، أَما بعد أَن تجاوز بنضاله الداخل ، وتم له توحيد شبه الجزيرة العربية ، وأَصبح عبد العزيز أَول رجل في تاريخ بلاده يلقب بلقب (الملك) بعد ذلك وضع له مستشارين ذوي خبرة في الشؤون السياسية الخارجية ، وهؤلاء يشاورهم عبد العزيز في شؤونه الخارجية ، وله معهم جلسات في مكان في قصره يطلق عليه اسم : (الشعبة السياسية) وإذا شاور مستشاريه ووجد رأيهم منسجما ورأيه ، أَقدم فوراً على تنفيذ ما يريده ، كما أَنه إذا وجد رأي مستشاريه يميل إلى الصواب أَكثر مما يراه هو ، عند ذلك يعود إلى الأَخذ برأيهم ، وإن كان ذلك نادر الوقوع .

أَما إذا كان المستشارون يخالفونه في رأي ينظر إليه

بعقله الراجح ، وبفكره الثاقب ، بصورة يرى فيها أفكار مستشاريه وإدراكهم دون مستوى المفهوم الذي يراه هو ، في حالة كهذه يمضي في تنفيذ الرأي الذي يراه صواباً بدون تردد .

إنه لذو رأي سديد ، وعزيمة صارمة :

يقول الشاعر العربي :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة
فإنَّ فساد الرأْيِ أَنْ تَتَـــرَدَّدَا

فإذا كان التردد وعدم الإقدام من أكبر آفات الرجل ، فإن عبد العزيز إذا قنع بصواب رأْيه ، لا يعرف شيئاً اسمه التردد والإحجام ، حتى ولو خالفه برأيه جميع مستشاريه ، فإنه يمضي قُدُماً بإرادة (فولاذية) تفل الحديد وهمة تناطح السحاب .

وبقدر ما لهذا العبقري من مواقف عسكرية (إنتحارية) كما مر بنا ذكره ، بقدر ما له في مجال السياسة من اقدام ومغامرات قد يعتبرها من يجهل أبعادها (انتحارية) محكوماً عليها بالفشل سلفاً

بحسن الشيم والرأي السديد سقط نوري السعيد

في أواخر الخمسين عاماً من هذا القرن (الثلاثين من التاريخ الميلادي) جاء وزير خارجية الحكومة العراقية السيد نوري السعيد إلى المملكة العربية السعودية ، فقابل الملك عبد العزيز – في القنص – وكان مجيء نوري السعيد في مهمة رسمية موفداً من قبل الحكومة العراقية ، التي يرأس وزراءها في ذلك الوقت السيد رشيد عالي الكيلاني .

كانت الغاية من مجيء نوري السعيد تتلخص في البحث مع الملك عبد العزيز بشأن تسوية الحدود السعودية العراقية .

كان نوري السعيد يؤمن إيماناً راسخاً بأنه سوف يستغل شيم عبد العزيز المعروفة ، ما دام وافداً إليه في بلاده ، ومعتبراً نفسه ضيفاً عليه، ومن شيمة أي عربي إكرام ضيفه ، والتنازل له عن أي حق يطالب به الضيفٍ القادم على مضيفه ، ومادام أن هذه من شيم العربي أنى كان ومن أخلاقه فما بالك بشهم كعبد العزيز إذا وفد إليه عربي يستثير نخوته ويستنجد به طالباً منه أن يتنازل له عن حق من حقوقه الشرعية .

كانت هذه فرصة نوري السعيد التي لا يجود له الزمان بمثلها ، بصورة يكسب بها نجاحاً سياسياً ترتفع به اسهمه عند أهل بلاده على الصعيد الشعبي وعلى الصعيد الحكومي معاً .

كان الملك عبد العزيز عند حسن ظن ضيفه نوري ، فما إن أبدى له الضيف عبارات تحمل الاستعطاف والرغبة بنجدته ، حتى استجاب له الملك العربي لنجدة ضيفه استجابةطافحة وإن كان نوري وطيد الثقة بأنه سيستغل كرم عبد العزيز وسخاءه لكن الشيمة العربية التي غمره بها عبد العزيز لم يخطر له ببال أن تتم له على النحو الذي رآه ـ وذلك أن عبد العزيز قال لوزير خارجية العراق : أكتب يا نوري مقدار الحدود التي تريدها ، ولك عليَّ أن أوقع على أي شيء تكتبه أنت بيدك وتضعه بمحض إرادتك .

عندما أدرك نوري السعيد أنه بلغ أكثر مما يتوقعه وجد نفسه أن لا يكون جشعاً في كتابته ، كما لا يكون قانعاً قناعة الزُّهاد ، بل اتخذ بين ذلك سبيلاً وسطاً ، وإن

كان فيه قليل من الطمع ، وقبل أن يقدم نوري السعيد كتابته إلى الملك ، علم بذلك المستشارون ، فأجمعوا كلهم على تفنيد الأُسلوب الذي اتخذه الملك مع نوري السعيد ، وقد حاول المستشارون أن يبدوا رايهم للملك لعله يمتنع عن قراره هذا ولكن محاولتهم تفتتت على صخرة تلك الإرادة الجبارة،وعندما رأى الملك مستشاريه قد تأثروا هدأ روعهم مؤكداً لهم بأنه سوف يذكرهم قريباً بأنه على صواب في قراره الذي اتخذه .

أما نوري السعيد ، فإنه جاء إلى الملك وقدم إليه اقتراحاته بصدد تحديد الحدود ، وعلى الفور أخذها عبد العزيز من نوري وختمها بختمه الملكي ثم أعادها إلى صاحبها .

كاد نوري أن يفقد رشده من شدة الغبطة والسرور .

ولما ذهب نوري إلى العراق ، قال البطل عبد العزيز لمستشاريه : كونوا على اطمئنان ويقين أن هذا التقرير الذي وقعته لنوري السعيد ، سوف يتناوله رئيس الحكومة رشيد عالي الكيلاني ويمزقه ، غاضباً على نوري مدعياً أنه

لم يأمره بذلك ، ولم يخول وزير الخارجية صلاحية كهذه.

والجدير بالذكر أن كل ما قاله الملك في تقديره للذي سيحدث كله وقع طبق ما توقعه ، وذلك أنه حالما قدم نوري السعيد (الاتفاقية) للكيلاني ، لم يتأخر رئيس الحكومة العراقية لحظة واحدة عن المبادرة بتمزيق تلك (الاتفاقية) التي كان نوري السعيد يعتز بها كل الاعتزاز ولم يخطر ببال نوري العراق وثعلبه أن (شيم) عبد العزيز هي وحدها التي طرحته . ١)

لكل إنسان حريته . على ألاّ تسيء إلى الآخرين :

كان ذلك في عام ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م عندما نزل الملك عبد العزيز في موقع يبعد عن الحدود العراقية مقدار خمسة (كيلو مترات) وذلك بعد أن هرب الدويش إلى الكويت ثم إلى العراق .

ولما كان الملك عبد العزيز قريباً من الحدود العراقية فقد حرص رئيس وزراء الحكومة العراقية السيد ناجي السويدي

---

(١) رويت هذه الحادثة عن الأمير فيصل بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود .



الملك عبد العزيز ، والملك فيصل الأول ، ملك العراق

على أَن يجتمع الملكان عبد العزيز وفيصل ، فبذل جهده لتحقيق هذه الغاية ، ووافق عبد العزيز على ذلك على أَن تكون موافقته مقرونة بالشرطين الآتيين :

أَولاً ـ أَن يكون البحث محصوراً على تصفية الجوّ ، وتوطيد عُرَى الصداقة بينه وبين الملك الهاشمي ، وأَن لا يكون بينهما حديث له صلة بالشؤون المتعلقة بين العراق والمملكة العربية السعودية نظراً لما فيها من التعقيدات .

ثانياً ـ أَنه لا يمكن أَن يحضر عبد العزيز مجلساً تعزف فيه الموسيقى ويشرب فيه (الدخان) ويقول الأُستاذ خير الدين الزركلي في كتابه « شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ١) » أَن هذين الشرطين أُبْلِغَ بهما المندوب السامي البريطاني في العراق في كتاب خاص .

وعندما اجتمع الملكان علـى متن الطرادة البريطانية (لوين) تصرف الملك فيصل في ذلك الاجتماع تصرفاً مخالفاً للشرطين ، وذلك أَنه بعد السلام المتبادل والمجاملات

---

(١) ص ٥١٠ .

المألوفة ذهب يتحدث عن الأُمور المعلقة بين العراق والسعودية .

ماذا فعل عبد العزيز إزاء ذلك ؟ ! :

وقد ظل عبد العزيز مصغياً له بكل حواسه ولم يُبْد أَدنى إشارة تعبر عن اعتراضه على مخالفة فيصل للبند الأَول ، ثم تناول فيصل علبة الدخان ، قاصداً أَن يشعل (سيجارته) ولكنه قبل أَن يفعل - إتجه إلى عبد العزيز ونظر اليه وطلب الاذن منه ، فما كان من عبد العزيز إلا أَن خرج من المكان الذي فيه الملك فيصل وأَتبع خروجه قوله موجهاً كلامه للملك فيصل : (أَنا أَعرف أَن قصدك من عملك هذا هو أَن تقول : إنني شربت الدخان أَمام عبد العزيز) [1] .

كأَنَّ عبد العزيز بتعبيره هذا يقول للملك فيصل : لك مطلق الحرية في أَي عمل تريد اتخاذه على أَساس أَن لا يكون هذا العمل على حساب المساس بحريتي ، وأَن لا يكون مخالفاً للشرطين اللذين سبق ذكرهما .

(١) رويت هذه الجملة عن المرحوم الأمير فهد بن سعد .



الأمير فهد بن سعد

وكان عند الملك فيصل على ما رواه الزركلي عن الشيخ يوسف ياسين ، الذي كان من أعضاء الوفد الذي رافق الملك عبد العزيز عذره ، لأن المندوب السامي ورئيس الوزارة العراقية لم يخبراه بشرطي الملك عبد العزيز ، وقد اعترف ناجي السويدي رئيس الوزراء أنه وصل إليه الخبر الذي يتضمن الشرطين ، وأنه لم يخبر الملك فيصلاً بهما ، فما كان من الملك فيصل إلا أن ذهب يؤنب رئيس وزرائه الذي كان حاضراً ، وقد قال رئيس الوزراء حينها إن حرصه على المصلحة العامة في اجتماع هذين الملكين العربيين جعله ينسى أو يتناسى عرض الشرطين على مليكه .

هَل الشَّجاعَة كُلٌّ لا يتجزَّأ ؟ أم الأمر عكس ذلك

اذا كان ما ذكرته من شجاعة عبد العزيز العسكرية والادبية ، كلها وقائع حدثت بعد فتحه للرياض ، فانني سوف اختتم هذا الفصل بذكر لشجاعة ادبية وعقلية صدرت من عبد العزيز ، وهو لا زال يافعاً وهي شجاعة عقل ومنطق من أروع الشجاعة الأَدبية التي لا تصدر في موقف كذلك الموقف ، إلا من فتى ثابت الجنان ، رابط الجأْش .

واذا كان العنوان الذي اوردته أَعلاه يسأَل عما اذا كانت الشجاعة كُلاًّ لا يتجزأْ ؟ أَي هل من يكون شجاعاً عسكرياً يكون أَيضاً شجاعاً عقلياً وأدبياً .

الجواب على ذلك يحتاج إلى دليل واضح ، فالدليل الذي شاهدته بحياتي هو انني عرفت أَكثر من رجل معروفاً بشجاعته العسكرية ، وهو في شجاعته الأَدبية رعديد لا شخصية له بل ربما يدفعه جبنه إلى التخاذل ، والنفاق ، والاستكانة التي تتنافى مع شيمة الشجاع الأَدبي .

وعندما يرى المرء صورة كهذه تحدث من بعض شجعان الحروب ، يكون في نفسه شك في صواب المنطق القائل ان الشجاعة جزء متصل الحلقات لا ينفصل ولا يتجزأ .

والمنطق القريب من الصواب ، هو ان من يكون شجاعاً بعقله ، وبفكره وفي منطقه في المواقف الصارمة الشديدة ، حري به ان يكون شجاعاً في الحروب ، وليس العكس ، لماذا ؟؟ لان شجاعة العقل والمنطق قليل من الرجال من يقوم بها لانها اعز واسمى مراتب الشجاعة اما شجاعة الحروب . فانهم كثيرون ، وتلك حقيقة عبر عنها الشاعر العربي خير تعبير عندما قال :

الا ان شجعان القلـــوب كثيرة
ولكن شجعـــان العقول قليـــــل

والمنطق القائل عن شجاعة الحرب انها تحتاج إلى مناجزة العدو باقدام فوري ومباغتة مفاجأة ـ جدير به ان يقال عن شجاعة العقل والمنطق انها تحتاج إلى جرأة ، وبديهة تقارع بها الحجة بالحجة ، وإلا فان الخصم سوف يتفوق على خصمه ان حقاً كان أو باطلاً .

وهكذا نجد عبد العزيز بقدر ما كان شجاعاً في مواقفه

العسكرية التي لم يجد فيها حلاً وسطاً إلا الاقدام ومناجزة العدو الفورية ، بقدر ما يحدثنا التاريخ بانه ذو شجاعة أَدبية وعقلية ومنطقية ، وقد برزت شجاعته هذه وهو لا زال فتياً دون سن النضوج ، وفي ظرف شديد الخطورة ، وفي مكان من أَشد الأَمكنة حراجة ، ولكن مع خطورة الزمان والمكان معاً نجد عبد العزيز لم يكتف بان يقف موقف الشجاع فحسب ، بل نجده وقف موقف التحدي لحاكم يملك قوة عسكرية رهيبة ويقود فرساناً جبابرة ـ بينما عبد العزيز لا يملك من القوة إلا نفسه العظيمة ، وارادته الفولاذية .

عرف عبد العزيز بشجاعته الأدبيـــة قبـــل ان يعرف بشجاعته العسكرية .

كان عبد العزيز يافعاً ـ عندما جاء الامير محمد بن رشيد غازياً للرياض في سنة ١٣٠٧ هـ وكان الحاكم للرياض الامام عبد الرحمن الفيصل ، الذي اعتقل سالم بن سبهان .

وقصة اعتقال سالم السبهان والعمل الذي قام به سالم ، في قتله للامراء الثلاثة ابناء سعود بن فيصل ـ سبق ان

تحدث عنها المؤرخون ولذلك لا أَرى ما يدعو إلى تكرار الحديث فيها ، والشيء الذي أَود أَن أَضعه في فصل الشجاعة ، هو الذي لم يسبق لكاتب أن أَورده ، وخلاصته كما يلي:

جاء الأَمير محمد بن رشيد غازياً للرياض من أَجل أَن يخلي الامام عبد الرحمن الفيصل سبيل سالم السبهان وحاصر الرياض اربعين يوماً ، وبعد هذا الحصار ، تمت المصالحة بين الامام عبد الرحمن الفيصل وبين الأَمير محمد بن رشيد.

وقد ذهب وفد من قبل الامام عبد الرحمن ليفاوض الأَمير بن رشيد على المصالحة ، والوفد مكون من اربعة اشخاص منهم اثنان من اسرة آل سعود ـ واثنان من أَعيان ووجهاء الرياض.

اما الاثنان اللذان من الاسرة فهم محمد بن فيصل آل سعود ـ وصاحب الترجمة عبد العزيز بن عبد الرحمن الذي كان يافعاً فوق سن التمييز ودون سن النضوج ، وأَما اللذان من الوجهاء ـ فهما الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف

والشيخ حمد بن فارس .

عندما اجتمع الوفد بالامير محمد ذهب الأَمير يتحدث حديثاً فيه عبارات تحتوي على لومه الموجه للامام عبد الرحمن بصورة – وان لم تكن مباشرة – فان معناها مفهوم عندما قال الأَمير انتم سجنتم (العلماء).

والأَمير بهذه الجملة التي أَلقاها أَمام ذلك الوفد لم يلقها عبثاً أَو بدون هدف ، وإنما أَلقاها وهو مستند إلى عوامل كلها تشجعه على القائها ، والعوامل المشجعة للأمير جاءت كما يلي :

اولاً – ان الأَمير يتحدث من مصدر القوة بصفته الغازي المحاصر للرياض بجيشه اللجب ، والقائد المحاصر غالباً سيكون النصر حليفاً له على المدى البعيد بينما المغزو المحاصر مهما بلغ من المثابرة والجلد والشجاعة فان نهايته الدمار ، اذا لم يبادر بعقد صلح مع الغازي ، وفقاً للحكمة التي انشدها الشاعر الشعبي حميدان الشويعر عندما قال :

يقصد المغزو المحاصر

كانه ينتشر وانت ما تنتشر　　　اصلحه لا يدمرك يالدوكره

والشاعر هنا يقول اذا كان عدوك محاصراً لك حصاراً

يمكنه من أَن يسرح ويمرح بالفضاء الطليق بينما العدو مشدد عليك الحصار ، فما من وسيلة لسلامتك إلا أَن تعقد صلحاً معه ، وإلا فان نهايتك الدمار .

وهكذا نجد الأَمير محمد عندما القى اللوم على وفد الامام كان يتكلم اولاً من مصدر القوة .

ثانياً - كان الامير في كلامه يعني ما يقول .

ثالثاً - يرى الأَمير ان كلمته هذه ترضي الشيخين اللذين هما الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف والشيخ حمد بن فارس ، فاذا لم ترضهما ، فانهما على الأَقل سوف لا يصدر من اي واحد منهما كلام يعبر عن عدم رضاه .

رابعاً - لم يخطر ببال الأَمير انه سيواجه من عبد العزيز الفتى الحديث السن والمحاصر في بلاده جملة فيها منتهى الشجاعة ، والتحدي والمنطق معاً ، وذلك انه ما ان انتهى الأَمير من كلمته التي قال : انتم تسجنون المشايخ .. الخ . حتى انطلق الفتى عبد العزيز وقال : « نحن نسجن من يخالف امرنا ونقطع رأْسه أَيضاً » .

كانت هذه الجملة من عبد العزيز بالنسبة للأَمير محمد أَشبه بالقنبلة ، فلم يسع الأَمير على حد ما رواه الثقات إلا السكوت .

الفصل الحادي عشر

حِمَايَةُ عَبْدِ العَزِيزِ لِمَنْ يَلُوذُ بِجِوَارِهِ، وَيَسْتَنْجِدُ بِهِ

حماية المستجير

لما كانت حماية المستجير جزءاً لا يتجزأ من الجرأة والشجاعة – فقد طاب لي أن أضع ذلك بعد فصل الشجاعة مباشرة ، مقدماً اياه على فصل السخاء ، علماً بأن كلمة السخاء – أو الكرم – ملازمة لكلمة الشجاعة أو مرادفة لها من حيث التعبير ، ولكنها ليست مشتقة منها من حيث المعنى كالحال في حماية المستجير .

هناك عادات وتقاليد موجودة في أخلاق العرب . منذ فجر التاريخ ، وعندما جاء محمد (صلعم) برسالة الإسلام من عند ربه أيَّدَ كل ما كان حسناً منها كإكرام الضيف ، وحرمة الجار ، وحماية المستجير ، وهذه الأخيرة حثَّ عليها الإسلام ، بصورة لم يفرق بها بين بني الإنسان سواء أكان المستجير مسلماً أو ذمياً ، بل حتى ولو كان مشركاً ، لذلك فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى

(وإن أَحدٌ من المشركين استجارك فأَجره حتى يسمع كلام الله ثم أَبلغه مَأْمَنَهُ) الآية .

ولذلك نجد العربي ربما يتساهل في كل شيء إلا في حماية المستجير ، وقد يفضل العربي أن يموت كريماً موفور الكرامة على أن يقبل هَتْك حرمة من يستجير به .

كان عبد العزيز ملاذاً للمستجيرين من المناضلين العرب :

حينما كانت البلاد العربية كلها رازحة تحت نير الإستعمار ، فسورية كانت تحت الإحتلال الفرنسي ، والعراق وفلسطين تحت الإنتداب البريطاني ، والمغرب وتونس تحت الاحتلال الفرنسي وليبيا تحت الاحتلال الايطالي ، وجميع أَحرار هذه البلاد المناضلين إذا ضاقت بهم الأَرض بما رحبت لم يجدوا في ذلك الوقت ملاذاً يلتجئون إليه بعد الله إلا عبد العزيز بن سعود ، سواء منهم المناضلون العسكريون أَو السياسيون .

ولنبدأ أَولاً بالمناضلين السوريين ، فخذ مثلاً الشيخ سلطان الأَطرش ، ورفاقه بني معروف ونبيه العظمة وصبري العسلي والدكتور محمد الشواف وخالد الحكيم والدكتور

أمين رويحة وغيرهم ممن لا أستحضر اسماءهم الآن . ومن لبنان فوزي القاوقجي وفؤاد حمزة ، ومن العراق ـ الدكتور عبدالله الدملوجي ، وهو قبل هؤلاء جميعاً ولا أقول رشيد عالي الكيلاني فإن الحديث عن استجارته يحتاج إلى إفراد كتابة خاصة له ، ومن ليبيا الشيخ أحمد السنوسي ، والشيخ خالد القرقني ، والشيخ بشير السعداوي ، ومن تونس الحبيب أبو رقيبة الذي سيأتي الحديث عنه

والجدير بالإشارة أن العدد الوافر من الذين التجأوا إلى عبد العزيز لم يعاملهم معاملة اللاجئين السياسيين تلك المعاملة المقصورة على إكرامهم وحمايتهم فحسب ، وإنما عاملهم معاملة مواطنيه الأكفاء .

فالدكتور عبد الله الدملوجي العراقي كان أول وكيل وزير خارجية في تاريخ المملكة ، وفؤاد حمزة اللبناني كان وكيل وزارة الخارجية الثاني ، ثم عين مستشاراً للملك برتبة وزير دولة ، والشيخ يوسف ياسين السوري كان نائب وزير للخارجية ، والليبيان الشيخ القرقني والشيخ السعداوي كان كل واحد منهما برتبة مستشار للملك ،

وفوزي القاوقجي كان أول رئيس لأركان الجيش السعودي وقد أتيحت لي فرصة الإجتماع بالمناضل فوزي القاوقجي فوجهت إليه أسئلة خطية ، وإلى القارىء نص رسالتي اولا ثم رسالته موقعة منه :

بسم الله الرحمن الرحيم

سيادة الزعيم العربي العريق النضال الوالد فوزي القاوقجي المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

لما كنت أعد كتاباً أسميته « من شيم الملك عبدالعزيز » وقد هيأت فصلاً خاصاً في حماية الملك عبدالعزيز لكل من استجار به من المناضلين السوريين بصورة خاصة ومن المناضلين العرب من مختلف الأقطار العربية بوجهٍ عام .

ولما كان سيادتكم من المناضلين السوريين الأوائل الذين استجاروا بالملك عبدالعزيز في عهد الاحتلال الفرنسي لسورية فإنني أود أن تجيبوني مع الشكر على الأسئلة التالية :

١- حينما لبيتم نداء الواجب الوطني وقمتم بنضالكم المسلح ضد المستعمرين لبلادكم ومن ثم وضعت دولة فرنسا ثقلها العسكري في قتالكم وأصبحتم لامناص لكم من أن تركنوا إلى حصن منيع تطمئنون إلى حمايته لكم . من هو ذلك الركن المنيع الذي خطر في بالكم أن تلوذوا بحماه ؟ وماذا تعرف عن موقف الملك عبدالعزيز في دعمه وتأييده للثورات العربية التي تناهض الاستعمار في كافة الاقطار العربية ؟ .

٢ - من هم المناضلون السوريون الذين التجأوا إلى الملك عبدالعزيز واستجاروا به بعد أن أعياهم الأمر في مقاومة المستعمرين ؟.

٣ - عندما علمت دولة فرنسا أنكم التجأتم إلى الملك عبدالعزيز هل وقعت أزمة سياسيّة بين الملك عبدالعزيز وبين الحكومة الفرنسيّة بسببكم ؟.

٤ - ما هو تاريخ الفترة التي التجأتم بها إلى الملك عبدالعزيز ؟ وما هي المدّة التي قضيتموها بضيافته ؟ وهل أسند إليكم الملك عملاً ؟.

٥ - وضعت في مؤلفي « من شيم الملك عبدالعزيز » فصلا خاصًا عن سخائه وقلت : إنّه لم يكن في عهده أوسمة للدّولة وأوضحت أنّ الوسام الذي يمنحه عبدالعزيز هو عبارة عن سيف أو فرس أو كسوة عربيّة ويصحبها شيء من المال وزدت تأكيدًا أن هذه الهبة العربيّة هي تراث عربي موروث من التقاليد العربيّة العريقة ولها الطابع المعنوي الذي يقوم مقام الوسام ،

وكما أنّ الوسام لا يردّ فكذلك هبة عبدالعزيز لا تردّ ، ومن ميزات هذا الوسام أنّهُ يجري إمّا سنويًا وإمّا شهريًا وقلت : إنّ الملك فيصلاً وفاءً منه ببرّه بوالده ترك هبة وسام أبيه مستمرة وسارية المفعول والسؤال الذي أوجّهُه لسيادتكم هو : هل وهبكم الملك عبدالعزيز وسامًا من هذا النوع ؟ وإلى أيّ مدى ظلّ هذا الوسام ساريَ المفعول ومستمرًا كما كان ؟

وبعد فإذا كان الشجاع مثلكم من شيمته الصّدق ، فانني وطيد الأمل أن يكونَ

جوابكم على أسئلتي هذه منسجماً وخلوق الشجاع ... ودمتم لابنكم .

١٧ شعبان ١٣٩٤
٢ أيلول ١٩٧٤

فهد المارك

ويلي رسالته صورة رسالة من الملك عبد العزيز موجهة إليه . وصور للجيش السعودي أول تأسيسه .

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٩ شعبان سنة ١٣٩٤ ـ ١٦ أيلول ١٩٧٤ م

ولدنا المجاهد الشيخ فهد المارك حفظه الله .

السلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وبعد فإني أشكرك جزيلاً لطلبك مني كتابة ما أعرفه عن شيم وسجايا المغفور له بطل العرب الملك عبد العزيز . وإنه يطيب لي أن أقول : إن الإحاطة بكل خصائص عبد العزيز ومؤهلاته وأخلاقه تتطلب تدوين مجلدات . ولكن نزولاً عند رغبتك اقتصر حديثي هنا ضمن الاسئلة بكل إيجاز .

أ ـ كنا أيام الضيق في الصراع ضد الاستعماريين الفرنسي والإنجليزي اللذين كانا يحتلان أجزاء هامة من الوطن العربي ، نتطلع إلى جلالة الملك عبد العزيز فينجدنا حسب طاقته ، ويقدم الينا المساعدات المتنوعة بصمت ودون ضجيج . وكنا أثناء إحتدام الثورة السورية في عام ١٩٢٦ بحاجة ماسة إلى السلاح والعتاد ، بعد أن أخمدت فرنسا ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي في المغرب ووجهت نحونا قوات جديدة جلبتها من هناك . وكانت المعارك الضارية تتوالى في غوطة دمشق والنبك وجبل الدروز ، ويتناقص معها يوماً بعد آخر ما كنا نملك من ذخيرة وسلاح .

وفجأة ونحن في أشد الضيق كان موفدو عبد العزيز يصلون إلينا حاملين معهم أغلى وأثمن ما نريد ، وكانت وصية عبد العزيز لنا بأن النجاح رهنٌ بالكتمان . وعندما تكاثرت علينا الجيوش الفرنسية بعدئذ وصار القتال عديم الفائدة بعد حرق دمشق ، وإتلاف الغوطة ، وتدمير العشرات من القرى والدساكر ، والفتك بالألوف من السكان

الأَبرياء ، لم يخطر ببالي ملجأ أَلتجىء إليه بكل أَمان واطمئنان إلا حمى عبد العزيز الذي تقبل لجوئي بالترحاب. كما التجأَ إليه الكثيرون من كبار المجاهدين أَذكر منهم سلطان باشا الأَطرش القائد العام للثورة السورية ، والأَمير عادل أَرسلان ، ونبيه بك العظمة ، والدكتور محمد علي الشواف ، وعادل بك العظمة . وغيرهم من الشخصيات العربية البارزة في ميدان النضال الوطني .

وكان رحمه الله يسبغ على الجميع من عطفه ومحبته فيضاً لا ينقطع ، ويتفقد حاجاتهم أَحياناً بنفسه ، ويدعوهم بين حين وآخر إلى مائدته . ولم يقتصر عطف جلالة الملك عبد العزيز على المناضلين من أَبناء سوريا فحسب بل شمل برعايته جميع المناضلين من أَبناء فلسطين والعراق والمغرب وسائر البلاد العربية . وكان دعمه المادي والمعنوي لكل حركة تحررية ضد الأَجنبي في دنيا العرب ، أَكبر مشجع لمتابعة النضال واستمراره .

وحين يكتب تاريخ الوثبات ضد الإستعمار في بلادنا

فوزي القاوقجي ، وعن يمينه المؤلف وسعدي بصبوص ، وعن يساره الاستاذ محمد أديب غالب

العربية فسيكون ليد عبد العزيز أَثرها البارز في هذا المجال .

ب - من الجدير بالذكر أَن الفرنسيين طلبوا من الملك عبد العزيز أَن يسلمني إليهم ، بسبب صفتي العسكرية السابقة في جيش الشرق السوري - اللبناني ، من أَجل تنفيذ حكم الإعدام الصادر بحقي . وأَبدى الفرنسيون إصراراً على مطلبهم ، وقاموا بمراجعات متكررة ، ولكن عبد العزيز ، الملك العربي الشهم ، أَبى أَن يقبل حتى مجرد البحث في هذا الموضوع ، ورفض الإستجابة للفرنسيين رفضاَ قاطعاً . وكاد هذا الموقف الصلب لجلالته يومذاك أَن يسبب أَزمة خطيرة بينه وبين فرنسا .

جـ-إنَّ الملك عبد العزيز وهبني أَعلى الأَوسمة حسب الطريقة التي كانت متبعة لدى جلالته في تكريم المستحقين ، فنلت منه سيفاً ذا قيمة تاريخية ، وذلك بمناسبة نجاح الإستعراض الأَول للجيش السعودي النظامي في مدينة جدة الذي كان لي شرف تكوين نواته الأُولى وتأسيسها .

جرى الاستعراض وقتئذ أَمام جلالة الملك بحضور

الأمراء وأركان الحكومة وأعضاء السلك الديبلوماسي ، وكبار الشخصيات السعودية . وقد همس جلالة الملك في أذني ، بعد إنتهاء الإستعراض وكنت واقفاً إلى جانبه : إتبعني إلى القصر .

وهناك كاشفني جلالته بمدى غبطته ، وأهداني السيف التاريخي قائلاً لي :

- يا فوزي .. إن لهذا السيف ذكريات غالية عندي . فهو أحد سيفين مشهورين أخذتهما في الحرب بيني وبين ابن الرشيد . وقد أهديت أحدهما إلى صديق عزيز جداً ، وهذا السيف الثاني هو لك . وأضاف جلالته : لك أن تختار أيضاً فرساً من خيلنا في الطائف .

وبعد أن شكرت جلالته وودعته وجدت أمام باب القصر سيارة فخمة ، علمت من سائقها ، انها لي بأمر من جلالته .

ولما رغبت بعد مدة في الخروج من المملكة لزيارة اهلي الموجودين يومذاك في مصر ، قال لي جلالته بعد ان مدحني امام الحاضرين بكلمات اعتز بها :

ـ اذهب الان لعند خويك فيصل ـ يقصد ولده فيصل بصفته صديقاً حميماً لي ـ وعندما عدت إلى منزلي لتجهيز نفسي من اجل السفر إلى جدة فوجئت بسائق جلالة الملك وكان اسمه صِدِّيق ، ومعه سيارة « الروز رايز » الوحيدة من نوعها في المملكة وقتئذ قائلاً لي :

ـ أرسلني جلالة الملك لأكون تحت أمرك ، وأوصلك إلى حيث تريد .

فقلت له فوراً : لعند سمو الأمير فيصل .

وكانت السيارة تحمل ثلاثين رزمة من ملابس وعُبِيٍّ ، وثلاثين صرة من الريالات الفضية .

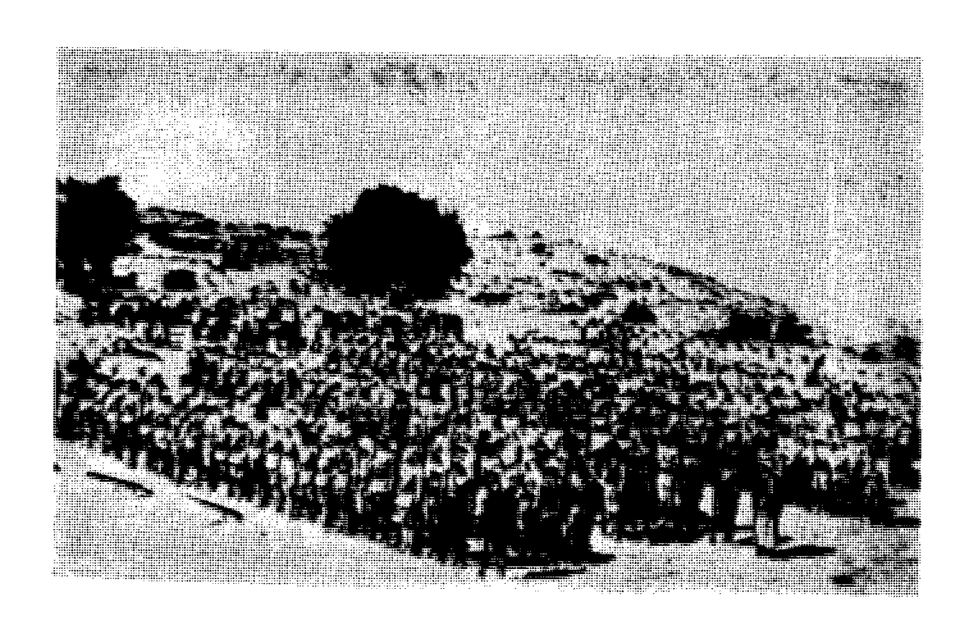
هذا الوسام الذي حباني به الملك عبد العزيز رافقني في جميع مراحل حياتي وانتقل من الأب إلى الأبناء ، ولا سيما جلالة الملك فيصل ، وعلى الرغم من أنني نلت أوسمة كثيرة عربية وأجنبية ، وكلها من أعلى الدرجات لأعمال قمت بها في ميادين القتال ، فإنني أعتبر المعاملة الممتازة التي لقيتها من آل سعود ، هي أغلى وأثمن وسام .

د ـ ابتدأت إقامتي في ضيافة المملكة السعودية سنة ١٩٢٩ م بعد إنتهاء الثورة السورية ومكثت هناك حتى عام ١٩٣٢ . وقد أمرني جلالة الملك عبد العزيز أثناء ذلك بتشكيل الجيش النظامي السعودي ، وعينني قائداً لهذا الجيش ، كما سبق ذكره . وإنه ليسرني أن أرفق إليك مجموعة من الصور التاريخية التي أُخذت أثناء إجراء التمارين العسكرية في مدينة جدة .

أما جوابي على العبارة الأخيرة يا أخ فهد وهي « إلى أيّ مدي ظل هذا الوسام ساري المفعول » ؟؟

إن وسام عبد العزيز لم ينقطع خيره عني إلا في بعض الظروف الإستثنائية مثل وجودي في المانيا خلال الحرب العالمية الثانية ، بسبب فقدان المواصلات ، وعندما تولى جلالة الملك فيصل مقاليد الامور أجرى لي راتباً شهرياً ، ولما علم جلالته بأني أعيش مع أولادي في إحدى ضواحي بيروت الشعبية المتواضعة في بيت أثقل كاهلي ايجاره أصدر أمره إلى سفارته بلبنان بأن تجد لي المنزل المناسب .

وهكذا ظل وسام عبد العزيز غفر الله له وأمد بعمر



الجيش السعودي أول تأسيسه حينما كان رئيس أركانه فوزي القاوقجي ، أول مؤسس للجيش النظامي

جلالة نجله الملك فيصل ، يلازمني خيره ، في شبابي وشيخوختي . وإليك صورة من رسائل الملك عبد العزيز موجهة إلي .

هـ - لا ريب في أن الملك عبد العزيز من الأَبطال النادرين في تاريخنا . كان حاد الذكاء ، ثاقب النظر ، حكيماً ، شجاعاً ، كريماً عرفت ذلك عنده عن كثب . له هيبة ورهبة يحس بهما كل من يقف أَمامه . وهذا شأن العظماء الذين يكتب لهم الخلود .

وختاماً لك تحياتي وأَطيب تمنياتي بالتوفيق .

فوزي القاوقجي

وهذا نص رسالة الملك عبد العزيز إليه :

المملكة العربية السعودية

ديوان جلالة الملك

عدد ٥-٥-٦٧   ٢٩ جماد أَول سنة ١٣٥٨

من عبد العزيز عبد الرحمن الفيصل إلى جناب المكرم فوزي القاوقجي سلمه الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد فقد تلقينا كتابكم بتاريخ ١٣٥٨ وأَحطنا علماً بما ذكرتم ، ونحن نشكركم على عواطفكم الطيبة ، وشعوركم الجميل ، أَحوالنا من فضل الله على ما تحبون من كافة الوجوه ، نحمد الله على ذلك .

قد وصل عادل العظمة إلى الرياض ، واجتمع بنا وتحدثنا معه ، ولا بُدَّ أَن يخبركم بما حصل ، من رأسه ، وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه .

هذا ما لزم بيانه . والسلام (الختم) .

مع قائد الثورة السورية

في يوم ٢٢-٨-١٣٩٥ هـ (الموافق ٢٩-٨-١٩٧٥ م)
ذهبت بسيارتي من دمشق إلى جبل العرب (١) وقد طلبت من الصديق عبد الله الشيخ عطيه السفير في وزارة الخارجية السورية أن نذهب معاً إلى الجبل ، وكان الغرض من ذهابنا هو أن نجتمع بـ (سلطان باشا الأطرش) زعيم الثورة السورية المسلحة التي قامت ضد الاستعمار الفرنسي - في عام ١٩٢٥ ، وقد قطعنا الطريق البالغ مائة وأربعين كيلو متراً في أحاديث شيقة ، وعندما وصلنا مدينة (السويداء) عاصمة الجبل ، سألنا عن الطريق المؤدي إلى البلد الذي يقيم فيه المناضل الأطرش ، وقد وجدنا من بني معروف من يدلنا على طريق بلدته المسماة (القريّة) حتى وصلنا

---

(١) جبل الدروز .

منزله . فنزلنا من السيارة وإتجهنا إلى باب الضيافة ، ووجدنا عند مدخل الباب شيخاً لابساً عمامة مطوية فوق (طربوش) أَحمر ، على الطريقة التي يتبعها الشيوخ المسنون من بني معروف ، وقد ذهب الأَخ عبد الله يسلم على هذا الشيخ باسم الباشا وشعرت أَن هذا الشيخ هو سلطان الأَطرش ، فذهبت أَحقق النظر فيه لأُوفق بين صورته التي وضعتها له في مؤلفي « من شيم العرب »(١) وبين الرجل الذي أَنظر إليه أَمامي الآن ـ فوجدت فرقاً كبيراً بين الصورة التي عندي وبين الشيخ الجالس أَمامي ، وإن كانت الملامح التي في الصورة لم تتبدل ، إلا أَن التبدل جاء من أَثر زيادة السنين ، فبينما الصورة التي عندي أَخذت له ـ فيما أَظنُّ ـ وهو في بداية الكهولة بينما أَجده الآن في سن الشيخوخة هذا إذا لم أَقل : بأَنه في سنِّ الهرم .

قدمني الأَخ عبد الله للمناضل الأَطرش ، وأَخبره عن هدفي الذي جئت من أَجله ، وأَكد له أَن لديَّ (هواية) بالكتابة عن أَصحاب الشيم والبطولات ، ولما كنت قد

(١) ج ٢ ص ٣٦١ .

كتبت عن الأطرش في كتابي « من شيم العرب »(١) فقد وجدت من الأنسب أن أقدم للباشا الأجزاء الأربعة من هذا الكتاب فقدمتها له وأرشدته إلى الصفحة التي فيها كتابة عنه كما أن فيها صورة له ، وأبيات للشاعر اللبناني رشيد سليم الخوري يطريه فيها ، فأخذ الباشا الكتاب ، وذهب يتصفح ما كتبته عنه . وبعد أن وضع الكتاب من يده وجاءنا ساقي القهوة العربية ورشفنا من قهوته وجهت إليه سؤالاً كان أحد أسئلة أعددتها له ، هو : ما هي الدوافع والاسباب التي دفعتكم إلى الثورة ؟ ..

فقال : (إن الفرنسيين أرادوا أن يغيروا العادات والتقاليد العربية التي ألفناها وعشناها) . وكنت ناوياً أن أسأله عن التقاليد التي يعني . كما كنت ناوياً أن أسأله عن أسئلة قد سجلتها في مذكرتي إلا أن الشيخ المسن الذي يزعم أخوه اللواء المتقاعد زيد وهو شريكه في الثورة أن سن الباشا سبعة وثمانون سنة ـ بينما كنت أتصور أنه في حدود المائة عاماً .

(١) الجزء الثاني :

لم يدعِ لي كبر سن الشيخ مجالاً لأَسأَله ، وذلك أنه بعث إلى أَخيه زيد فجاء إلينا حالاً ، وقد عرفني به الأَخ عبدالله الشيخ عطيه كما عرفه بي .

مناضل وأديب في آن واحد :

وكان أَول عبارات تحدث بها المناضل زيد الأَطرش أَبيات من قصيدة عُبَيد العلي بن رَشِيد وهي :

ربعي لَقَوْا بي عقب ما شِبْت بِي عَيْبْ
لقــوه بْكِتْــبِ مْفَسِّرْينَ الْحَلاَمِي
قلت : أَخبروني وَيْشْ معنَى هَكَ الْعَيْب
قالــوا : على ساقَــةْ رفيقك تْحامي
قلت : العيب هذا من قديم لنا عيب
مستَارْثِنِهْ مــن خوال وْعَمَــــام

إلى آخر القصيدة المعروفة كما أَن زيداً الأَطرش أَسمعنا بعد ذلك قصيدة أَنشدها هو بعد حرب رمضان ، وهي من عيون القصائد التي سمعتها في المعنى الذي تطرق إليه ، وزيد الأَطرش رجل يزيد سِنُّهُ على الستين ، إلا أَنه مليء بالحيوية ، ولولا بياض في شاربه لما استطعت أَن



الملك عبد العزيز ، وعن يساره رئيس جمهورية سورية (سابقاً) السيد شكري

أَزيده على الخمسين سنة ، وقد شارك أَخاه سلطان مشاركة فعلية في ثورة عام ١٩٢٥ - التي لها الآن خمسون سنة ، وكان بعد عودته إلى بلاده قائداً للدرك السوري برتبة لواء .

لم أَشأ أَن أَسأَل زيداً عن أَسباب ثورتهم ، وإنما سأَلته عن الصورة التي جعلتهم يلتجئون إلى الملك عبد العزيز فذهب يشرحها لي قائلاً :

عندما قمنا بثورتنا ضد الفرنسيين ذهب الفرنسيون إلى ضرب النساء والأطفال . ، في الحين الذي كنا في الميدان نحارب العدو ، وكان قصدهم من عملهم هذا أن يرهقوا أَعصابنا ويؤثروا على معنوياتنا ، فما كان منا إلا أَن نقلنا نساءنا وأَطفالنا ووضعناهم في (الأَزرق) في الحدود الاردنية ، وأَصبحنا نقوم بأَعمالنا النضالية ونحن مطمئنين على أُسَرِنا ، وأَخيراً ضغط الفرنسيون على الإنكليز ، وشدد الممثل البريطاني الذي في عَمَّان علينا من أَجل أَن نرحل عن (الأَزرق) فما وسعنا إلا أَن كتبنا رسالة للسيد شكري القوتلي طلبنا منه أَن يأخذ لنا من الملك

عبد العزيز إذناً بالسماح لنا في الذهاب إلى الحدود السعودية فجاءنا الرد بالموافقة من الملك عبد العزيز عن طريق السيد شكري القوتلي ، وطلب الملك منا أن نقدم له بياناً بعدد نفوسنا جميعاً ، فقدمنا البيان . وذهبنا إلى (النَّبْك) وكان أمير القريات في ذلك الوقت الحواسي ، وهو رجل طيب كثيراً .

فتور لم نعرف أسبابه إلا فيما بعد :

عندما وصل السيد زيد في حديثه إلى الكلام الذي عبر به عن وصولهم إلى الحدود السعودية ، توقف عن مواصلة الحديث ، فأَدركت أَن في نفسه شيئاً يريد أن يقوله ، ولكنه متردد ، فقلت له : تحدث بصراحة ولا تكتم ما في نفسك لأَنني بطبيعتي أُحب الصراحة .

فذهب الأَطرش يتحدث عن الفتور الذي لاقوه بعد وصولهم ، ومن هذا الفتور أَنهم عندما وصلوا الحدود السعودية أَرادوا أَن ينطلقوا من هناك ويذهبوا ليحاربوا الفرنسيين ، ولكن الملك عبد العزيز قال لهم : إنه لا زال بادئاً في توطيد دعائم دولته الفتية ، ولا يريد أَن يصطدم

مع دولة فرنسا ، فيما إذا وضع بلاده وكراً ينطلق منه اعداء فرنسا ليضربوا جنودها ، فينتج بعد ذلك رد فعل من فرنسا) .

فقلت للأطرش : إذا كانت الدول العربية المتاخمة لإسرائيل كل دولة تحاول ما وسعها الجهد بأن تمنع الفدائيين الفلسطينيين من أن ينطلقوا من أرضها ليضربوا (إسرائيل) خوفاً من عقاب اسرائيل وانتقامها منهم ، وهي الدولة العدوة لجميع هذه الدول ، فهل يلام عبد العزيز فيما إذا وجد نفسه لا يستطيع أن يتصدى لمحاربة فرنسا الدولة العظيمة ، فيكفي منه أنه قبل لجوءكم عنده وهو في قبوله هذا قد تحدّى دولة فرنسا »

كان عبد العزيز يريد أن يقبلهم مُجيراً ومضيفاً :

الواقع أنني وجدت عند زيد وعند أخيه سلطان من قبله صدراً رحباً في قبولهما عذر عبد العزيز ، أقول : ومن سلطان لأنه جرى حديث منه في هذا الموضوع قبل أن يأتي أخوه زيد ، فكان قانعاً بعذر عبد العزيز .

بعد أن اعترف السيد زيد وقبله أخوه سلطان بالعذر

المبرر لعبد العزيز في عدم قبوله بأَن يدخل نفسه في حرب مع فرنسا فيما إذا سمح للاجئين أَن ينطلقوا من أَرضه ، بعد ذلك بدا لي من السيد زيد أَن في نفسه حديثاً آخر ، يتر دد بالصراحة فيه ، فقلت له : يبدو أَن في نفسك شيئاً يا أَخ زيد لم تقله ، فإن يكن هناك شيء فصارحني به لأَنني لا أَرى أَجمل من الوضوح والصراحة . فعقب علي حديثي الأَخ عبد الله عطية وقال : إن الأَخ فهداً صريح ، ويريد أَن تحدثوه بكل وضوح وصراحة . فراح أَبو غالب – كنية اللواء زيد – يحدثني بعبارات تشير إلى أَن الملك عبد العزيز كان قابلاً مجيئهم لا مُجيراً فحسب بل مجيراً ومضيفاً والدليل على أنه قبِلَهُم ضيوفاً أَنه طلب بيان أَسمائهم رجالاً ونساء ، ولكنه بعد ذلك قصر الأَمر على أَن قبلهم مجيراً ، لماذا يا تري توقف عبد العزيز عن قبولهم ضيوفاً عنده وهو المعروف بسخائه ؟ !

كان سلطان باشا قد أَشار في عبارة تحدث بها قبل مجيء أَخيه ، وهي من جملة تعبر أَنه وصل إلى الملك عبد العزيز خبرٌ يفيد أَن سلطان الأَطرش ورفاقه لهم صلة بالفتنة

التي قام بها ابن رفادة ، ضد الملك عبد العزيز ، هذا ما أَسمعنيه المناضل الشيخ سلطان ، ولكن بعد أَن دار الحوار السالف الذكر بيني وبين اللواء زيد فهمت من حديثه أَن هناك إتهاماً للباشا سلطان من الملك عبد العزيز يعبر عن عدم إطمئنان الملك منه ، بل يعبر عن كونه أَصبح موضع ريبة ، وهذا الإتهام هو أَن الباشا سلطان واخوه زيد تم لهما الإجتماع بالملك عبد الله أَمير شرق الأُردن في ذلك الحين ، ومعروف ما بين الملك عبد العزيز وبين الأَمير عبد الله من العداء ، ومعروف أَيضاً أَن المحرك لفتنة ابن رفادة الفاشلة هو الأَمير عبدالله ، وهذه القرائن والأَدلة إذا رُبِط بعضها ببعض يخرج لها نتيجة واحدة ، وهذه النتيجة تدعم التهمة الموجهة للأَطرش وهي صلته بابن رفادة ، وفي حال توفر هذه القرائن وتلك الأَدلة ولا سيما الدليل الأَخير ، الذي يعترف به اللواء زيد نفسه بأَن الباشا سلطان وهو – وربما معهما آخرون من جماعتهما بني معروف – إجتمعا بالأَمير عبد الله في مكان اسمه (المدور) وإن كان اللواء زيد أَقسم أَمامي بالله قائلاً : إنهم في ذلك الإجتماع لم يأتوا على ذكر الملك عبد العزيز بأَية كلمة .

هذا ما أَقسم به زيَد الأَطرش ، ولكن المنطق والعقل والعداء المشتعلة نيرانيه في ذلك الوقت بين الملك عبد العزيز وبين الأَمير عبدالله يجعل إحتمال سوء الظن والريبة والشك - لدى عبد العزيز من إجتماع الأَمير عبد الله المهزوم الحاقد بسلطان الأَطرش الموتور الثائر بطبيعته - يجعله قائماً - فكيف إذا وجد هذا الإحتمال من يزده يقيناً وقناعة في نفس عبد العزيز ، من سعاة السوء الذين دأبهم بث التفرقة بين رجال الأُمة العربية لأَنَّ هذا النوع من أَشباه الرجال لا يعيش إلا بإحتراف هذا الأُسلوب الوقح .

واللواء زيد في عرضه للوضع يؤكد أَن هناك دعاة للتفرقة إستطاعوا أَن يزيدوا شكوك الملك عبد العزيز وأَن يضاعفوا ظنه بالأَطرش ، مستدِلاً في ذلك على رسالة بعثها الأَمير شكيب أرسلان إلى صديق له فيها ما يشير إلى لوم أَرسلان على موقفه ضد عبد العزيز ، وفيها ما يشير إلى أَن الملك عبد العزيز ليس مطمئناً من سلوك الطرشان ، ويؤكد زيد أَن هناك رسالة أُخري وردت إلى سلطان باشا من مستشار الملك عبد العزيز فؤاد حمزة ، يقول فيها على ما رواه السيد

زيد : (ينبغي أَن يحضر سلطان باشا ليقابل الملك عبد العزيز ليزيل ما في نفس الملك من الريبة والشكوك وسوء الظن الذي اوحى به المغرضون) أَو ما هو في هذا المعنى . ؟

وقد طلبت من اللواء زيد بأَن يوافيني برسالة فؤاد حمزة ، وكان على استعداد لتلبية طلبي لولا أَن الوقت ضيق حيث رجعت أَنا والأَخ عبد الله الشيخ عطية في يومنا ، والتنقيب عن رسالة مضى عليها ما يقارب خمسين سنة يحتاج إلى وقت أَوسع من وقتنا الضيق .

المقصود أَن جميع هذه الأَدلة المتوفرة أَوجدت في نفس الملك عبد العزيز سوء ظن بالأَطرش وفقاً لما نقلته عن اللواء زيد شقيق سلطان باشا وشريكه في النضال .

وإذا كان هذا ما يعترف به الجانب الذي هو موضع الريبة ، فإنه لو أُتيحت لي الفرصة بالجانب الثاني الذي هو الملك عبد العزيز ، أَو مستشاره الصديق فؤاد حمزة لربما اتضح لي من خفايا الأُمور أَكثر مما نقلته عن اللواء زيد .

أَما اللواء زيد فإنه يؤكد أَن سبب الفتور الذي واجهوه

من الملك عبد العزيز لم يعرفوه إلا بعد عودتهم إلى أهلهم ، وكثيراً ما يردد العبارات التي يقسم بها أنه لم يكن بينهم وبين الأمير عبدالله أي عمل ضد الملك عبد العزيز ، وإذا كان اللواء زيد أقسم يميناً بعد يمين بأنهم لم يقوموا بأي عمل ضد الملك عبد العزيز ، فإنني لا أستطيع أن أنفي أو أثبت التهمة التي أحدثت الفتور من عبد العزيز ، وإنما الذي أؤمن به أن عبد العزيز الذي عُرِف بسخائه وقبل لجوءهم إلى بلاده بل والذي طلب بيان أسمائهم وعددهم جميعاً قاصداً أن يضيفهم مدة إقامتهم عنده ، من المستحيل أن يتخلى عن سخائه ، لو لم يكن هناك مؤثر قويٌّ والله أعلم بكنه هذا المؤثر وبمدى صحته .

رُبَّ صُدفةٍ خيرٌ من ميعاد

للعرب أَمثال لها وقع في النفس ، ولعل السر العظيم في ذلك أَن بعض هذه الأَمثال كثيراً ما تتكرر في أَكثر من مناسبة من المناسبات التي تـأْتي بها الصدف بصورة لم تكن بالحسبان ، ولم تـخطر على البال ، بل ربما لو أَراد المرء أَن يسعى إِليها لما تيسر له تـحقيق هدفه المنشود بالسهولة نفسها التي تـأْتي أَحياناً في فرصة طارئة ، لم يسبق لها ميعاد .

وهكذا . وفقت للعثور على واحدة (من شيم عبد العزيز) وما أَكثر شيمه التي لم أُوفق للعثور عليها ، أَما هذه الشيمة فقد وفقت لها . وقسم من مواد الكتاب قد أُعِدَّ لتقديمه للمطبعة .

كان ذلك في ١٠ جمادي الأُولى ١٣٩٥ هـ (الموافق ٢٠

أيار (مايو) ١٩٧٥ م) أما المكان فإنه كان في (ليبيا) وفي عاصمتها طرابلس الغرب . وفي (فندق الشاطيء) الذي أنزلتني به حكومة ليبيا العربية ضيفاً عليها بصفتي أحد أبناء البلاد العربية المدعويـن لحضور (الندوة القومية لدعم الثورة الفلسطينية) تلك الندوة التي افتتحت في ٥ جمادي الثاني ١٣٩٥ (الموافق ١٥ أيار (مايو) ١٩٧٥) .

في الزمان ، والمكان أُتيحت لي الفرصة بالالتقاء بالمناضل العربي الأَخ الأُستاذ محمد المصمودي – وزير خارجية تونس سابقاً – وأَحد المناضلين التونسيين الذين تم على ايديهم إستقلال بلادهم ، والذي لم يفتأْ يواصل نضاله ، باذلاً مساعيه الطيبة التي يستهدف بها توثيق عرى الروابط الأَخوية بين حكام أَمته العربية ، فأَكْرِمْ بها من مساعٍ شريفة سائلاً المولى له التوفيق .

كان لديَّ علم عن مساعي المصمودي هذه ، كانت بداية معرفتي إياه قبل هذا التاريخ بيومين فقط . التقيت به المرة الأُولى في (فندق الودان) في طرابلس حيث أقامت الحكومة الليبية حفل عشاء لرجال الندوة المشار إليها ،

وكنت شديد الحرص بأَن أَعرف السيد المصمودي ، وما أَن التقيت به في ذلك الحفل حتى بادرته بالسلام ، ولما كان لقائي به هذا جاء صدفة . وفي حضور عدد وافر من المدعوين العرب لهذه الندوة على مختلف أَقطارهم العربية ، فقد أَبديت له رغبتي بأَن نتكلم على انفراد ، فاستجاب مشكوراً ، وفي ذلك المكان الذي انتحينا فيه جانباً دار بيننا الحديث حول الهدف والآمال الأَماني التي يود تحقيقها ويسعى إِليها كل عربي مخلص ، وبعد فترة من حديثنا الذي كنا غارقين فيه جاء أَحد الأَخوان العرب المدعوين لحضور الندوة ، فجلس محاذياً لنا عن قرب ، ولحسن الحظ أَن هذا لم يأْت ليقطع حديثنا إِلا بعد أَن استوفينا ثمرة الحديث وجوهره الذي دار بيننا .

وإِذا كان ذلك اللقاء هو الأَول الذي عرفت به السيد المصمودي ، فإِنني في قرارة نفسي قد شعرت أَن الرجل قريب من قلبي قرباً يوحي بأَن المعرفة بيننا ليست وليدة وقتها ، بل كأَنها معرفة مضى لها سنون ، بعيدة المدى ، كانت هذه الرابطة الروحية هي وحدها التي جعلتني أَحدد

الوعد بيننا بأن يكون غداً ، في الفندق الذي ننزل فيه أي (فندق الشاطيء) وقد عرف رقم غرفتي وهو ٣١٣ - حيث وعدني بأنه سوف يتصل بي هاتفياً في تمام الساعة العاشرة صباحاً - بتوقيت ليبيا - ولكن اتصاله على ما فهمت منه فيما بعد كان خطأً وذلك أنه اتصل بغرفة رقمها ٣١٥ - وفي اليوم الثاني اتصلت به ، عندما سألته عن عدم اتصاله بي حسب الوعد المتفق عليه بيننا ، أجاب بأنه إتصل بغرفتي ولم يجدني : فقلت : إني لم أخرج من الغرفة . فقال : ألست نازلاً بالغرفة التي رقمها ثلاثمائة وخمسة عشر ؟ .. فقلت : من هنا جاء الخطأ ، إنني في الغرفة (٣١٣) .

وبما أنني عرفت من حديثنا السابق بأنه سوف يسافر في اليوم ذاته الذي حدثته فيه ، من أجل مواصلة مساعيه العربية التي أرجو له فيها التوفيق - لذلك ذهبت إليه في جناحه وعندما دنوت من الباب وجدت شاباً يرتدي لباساً مدنياً واضعاً كرسيه أمام الباب الخاص بجناح السيد المصمودي . فعرفت أن هذا الشاب يتولى حراسته من قبل

الحكومة الليبية . فأَراد في أَول الأَمر أَن يمنعني . ولكنه خلى سبيلي حينما أَخبرته باسمي ، وأَوضحت له أَنني لم آتِ إلا بعد مخابرة هاتفية تمت بيني وبين الأُستاذ المصمودي ، وهكذا دخلت الباب المؤدي إلى (الصالون) ، ثم بعد ذلك جاء إليَّ الأَخ المصمودي .

مفاجأة أنستني الغرض الذي جئت من أجله :

بعد تبادل التحية ، ذهب أَخونا المصمودي يحدثني عن إعجابه بولي العهد الأَمير فهد ، مؤكداً أَنه يعرفه منذ عدة سنوات .

ولست أَدري كيف انتقل الحديث من إعجابه بالأَمير فهد إلى إعجابه وإجلاله للمغفور له الملك عبد العزيز ، الذي رآه المرة الأُولى التي زار فيها الرياض في عام ١٩٥٠ م وتم له مقابلته بصحبة (الحبيب بورقيبة) ، ويرافقهما أَحد المناضلين التونسيين وهو السيد علي الزليقني الذي توفاه الله ، ومضى المناضل المصمودي يحدثني عن دار الضيافة التي أَسكنهم الملك عبد العزيز فيها . واصفاً إياها أَنها مبنية بالطين .

وكأَنَّ لسان حال الأَخ المصمودي يقول : كيف تبدل العمران في مدينة الرياض بهذه السرعة ، من مساكن الطين ، إلى العمارات والبنايات المبنية بالإسمنت المسلح وناطحات السحاب ؟ !

كنت أَصغي إلى حديث السيد المصمودي من قبيل المجاملة فقط ، وذلك أَنني لم آتِ إليه من أَجل أَن أَسمع منه الحديث عما كانت عليه مدينة الرياض منذ ربع قرن ؛ فذلك أَمر لم يكن خافياً علي – ومن أَجل ذلك كنت حريصاً أَن ينتهي من كلامه هذا لكي أُبادره بسؤال يتضمن إستيضاحي إلى أَي مدى وصلت إليه مساعيه لإصلاح الشأْن بين الأُسرة العربية .

وفجأَة انتقل المصمودي من حديثه السابق إلى الحديث في موضوع وجدته ضالتي المنشودة ، وبصورة لا شعورية أَنساني إستماعي لحديثه الغرض الذي جئت إليه من أَجله ، والسبب في نسياني هذا يعود إلى كون الحديث الذي انتقل إليه عن أُنموذج (من شيم عبد العزيز) التي كنت ولا زلت أَسعى ما استطعت للبحث عنها .

أول رصاصة رمى بها التونسيون العدو كانت من عبد العزيز :

في الحين الذي كنت أَصغي إلى حديث المصمودي من قبيل المجاملة الأَدبية ـ كما أَسلفت ـ راغباً أَن ينتهي من حديثه هذا لأبدأَ بسؤالي له عن الغاية التي أَصبو إليها ، والتي سعيت إليه من أَجلها ، في تلك الفترة شعرت أَنَّ الحديث الذي يحدثني به الرجل لم يكن فضولاً ، وإنما هو تمهيد لحديث له معناه الجوهري ، وله مرماه وأَبعاده التاريخية عندما قال الجملة الآتي نصها الحرفي : (كان أَول خرطوش رمينا به نحن المناضلين التونسيين العدوَّ المستعمر الفرنسي هو الخرطوش الذي قدمه لنا الملك عبد العزيز) .

قال المصمودي هذه الجملة ثم ذهب يواصل حديثه بلهجته المغربية ، ولما كانت لهجة إخواننا المغاربة لانستطيع نحن العرب في المشرق فهمها فهماً تامًّا ، فقد قلت للأَخ المصمودي : إنني الآن أُعد كتاباً بعنوان « من شيم الملك عبد العزيز » ويضم هذا الكتاب قسماً من مواقف عبد العزيز القومية في مناصرته لإخوانه المناضلين العرب في

مختلف أَقطارهم التي كان يحتلها المستعمرون ، في الوقت الذي لا يجد مناضلو البلاد العربية ملاذاً يلتجئون إليه ويستنجدون به من حكام الأَقطار العربية كافة إلا الملك عبد العزيز ، ثم مضيت وقلت : أَرجو يا أَيها الأَخ أَن يكون عرض حديثك في موضوع الخرطوش الأَول الذي أَمدكم به الملك عبد العزيز في حربكم للمستعمر ، أَود أَن يكون الحديث فيه باللغة العربية الفصيحة التي هي لغة القرآن ويفهمها جميع ناطقي الضاد .

وقد استجاب الأُستاذ المصمودي لطلبي فذهب يشرح بوضوح قضية (الخرطوش الأَول) الذي أَطلقه المناضلون التونسيون على المستعمر الفرنسي . ذلك الخرطوش ، وتلك الرصاصة التي كانت البذرة الأُولى في تحرير تونس العربية من نِير الغاصب ، ذهب محدثي يوضح ذلك بقوله : كنت ذلك الوقت طالباً في باريس ، وجمعتنا أَهداف النضال مع (الحبيب بورقيبة) حيث ذهبت معه إلى القاهرة ، وهناك تم لنا الإجتماع بوزير الخارجية المصري السيد محمد صلاح الدين ، وعندما عرضنا للوزير هدفنا الذي جئنا إليه

من أَجله قال لنا الوزير المصري : من رأيي أَن تذهبوا إلى الملك عبد العزيز بن سعود ، ويمضي المصمودي ويقول : كان الأَمل بنجاح مهمتنا التي نسعى إليها أملاً ضئيلاً من حيث مؤازرة الدول العربية لنا ، ويعلل الرجل رأيه هذا عن ضعف الأَمل ويقول : كانت الدول العربية هزيلة ومنهوكة القوى ، وذلك نتيجة لهزيمة العرب في عام ١٩٤٨ ونتيجة لقيام دولة اسرائيل ، ويواصل المناضل التونسي حديثه ويقول : ولكن مع ذلك لا محيص لنا من أَن نأخذ برأي الوزير محمد صلاح الدين ، وعملاً برأيه ذهبنا إلى الرياض وحالما وصلنا انزلنا في دار الضيافة ، وفي هذه الدار جاء إلينا أَحد الإخوان السوريين ، وذهب يعرض علينا صورة عن التقاليد المرعية التي يتخذها الملك عبد العزيز مع الوافدين إليه ، وفي عرض السوري هذا قال : إذا وجه إليكم عبد العزيز بعد تبادل التحية عبارة قال فيها (عساكم ما تكلفتم في سفركم هذا) ؟ إن قال هذه الجملة فأَنتم بعد الإجابة على جملته هذه ـ أَعرضوا له الغاية التي جئتم من أَجلها . أَما إذا لم يوجه إليكم هذا

السؤال ، فأنتم لا تبحثوا معه أي موضوع ، وربما يرسل إليكم يوسف ياسين ليسألكم عما في أنفسكم ، ويؤكد المصمودي أنه في عصر ذلك اليوم الذي جاءوا به ، بعث الملك إليهم رسولاً ليأتي بهم للسلام عليه ، وبعد تبادل التحية وجه الملك إليهم العبارة التي أخبرهم بها السوري . وهي (عسى ما تكلفتم الخ) فتولى الجواب (أبو رقيبة) الذي بعد أن أجاب الملك على سؤاله قال : نحن جئنا هنا لنستنجد بك يا جلالة الملك لأننا لدينا عزيمة في محاربة العدو الغاصب لبلادنا .

وكان جواب الملك عبد العزيز على ما رواه لنا المصمودي جملة عبرت أوضح التعبير عن إستجابة العربي لنخوة أخيه العربي نخوة وإستجابة سريعة واقعة، ليس فيها تأجيل أو تسويف ، بل أمدهم بالمال فوراً ، ثم بعد ذلك دفع لهم هبة ثانية سخية ، وهكذا كان ذلك المال على حد ما رواه الأخ المصمودي هو العون الأول الذي اشترى به المناضلون التونسيون سلاحاً كان هو الرصاصة الأولى أو (الخرطوش الأول) الذي صوبه المجاهدون التونسيون نحو صدور

المستعمرين الفرنسيين ، إلى أن طردهم من بلادهم ، وعادت تونس إلى مكانـ ها الطبيعي عربية كما كانت من قبـــل .

هذا وقد أنهى الأُستاذ المصمودي حديثه بقوله : إن مما لفت نظره من أخلاق الملك عبد العزيز ما شاهده منه من خشوع وتضرع بين يدي الله ، وذلك عندما ذهب يؤدي الصلاة في المسجد ، ويعطينا المصمودي صورة عن عبد العزيز في خشوعه فيقول : عندما ذهب لتأدية الصلاة ذهبنا نحن نؤدي الصلاة المفروضة ، وكم دهشت عندما رأيت الملك عبد العزيز رافعاً يديه يسأل الله ، والدمع ينهمر من مقلتيه ، بصورة تثير في النفس الخشوع .

كان عبد العزيز تاركاً بلاده مفتوحة لأيِّ عربيٍّ ومسلم

لم يضع عبد العزيز في بلاده عقبات تمنع أَي عربي ولا أَي مسلم يريد أَن يقيم فيها ويعمل في أَي عمل يتناسب وكفاءته . ولم يضع عراقيل ولا عقبات دون من يريد أَن ينال (الجنسية السعودية) ويتمتع بها فقد كان يمنحها لأَي عربي يطلبها ، ويفتح له المجال وتفسح له ميادين العمل. أَي عمل يتلاءم وكفاءته ومؤهلاته وميوله .

وما من حاكم عربي أَفسح المجال لغير مواطنيه للإنخراط في (السلك السياسي) الذي يعتبر العمود الفقري في كيان الدولة غير الملك عبد العزيز .

بل ما من حاكم عربي غير عبد العزيز اعتبر العربي القادم إلى بلاده فَرْعاً عاد إلى أَصله . وابناً رجع إلى وكر آبائه وأَجداده .

وإذا كانت رتبة رئيس البعثة أَو السفير ، يستحيل أَن ينالها العربي في أَية حكومة من الحكومات العربية ما لم يكن السفير أَو الوزير المفوض من أَهل البلاد ولادة ومنشأ وأَصلاً ، فإن عبد العزيز لم يطبق هذه القاعدة ، بل خالفها مخالفة تامّة ، ونظر إلى العربي من حيث كفاءته بنفس العين التي ينظر بها إلى أَي عربي من أَهل بلاده .

اعتبر عبد العزيز عمله هذا واجباً عربياً لا منة فيه : —

كان بإمكاني أَن أَذكر أَسماء الإخوان العرب الذين نالوا رتبة سفير أَو وزير مفوض ولكني امتنعت عن ذلك للسببين الآتيين :

أَولاً — أَنني خشيت أَن أَجد من يُؤَوِّل ذكر تلك الأَسماء إلى ما يشير من بعيد أَو من قريب إلى المنة ، وهذا شيء ينافي أَهداف عبد العزيز وشيمته مع إخوانه العرب ، تلك المنافاة التي أَشرت إليها آنفاً ، مؤكداً بأَن عبد العزيز يعتبر العربي الذي يفد إليه من بلاده فرعاً عاد إلى أَصله الجزيرة العربية الموطن الأَول والأَصل الأَصيل الذي تفرع منه العرب .

ثانياً - لم أَر ما يدعو إلى ذكر الأَسماء ما دام أَن كثيراً منهم لا يزال على قيد الحياة ، وإذا كان لا بد من إشارة تغني عن العبارة ، فإنني أُشير على الوجه الآتي :

من مصر واحد ، ومن سورية أَربعة ، ومن لبنان خمسة ، ومن ليبيا واحد ، ومن العراق واحد ، ومن فلسطين ثلاثة .

والجدير بالذكر أَن الخلف سار على نفس الطريقة التي سار عليها السلف ، أَي إن الملك سعوداً والملك فيصلاً سارا على الخطة التي سار عليها والدهما الملك عبد العزيز . ويسير الملك خالد وولي عهده الأَمير فهد على سيرة والدهما .

وهناك رجل فلسطيني منح رتبة وزير دولة لدى المملكة العربية السعودية على الرغم من أَن هذا الشخص نفسه رفضت إحدى الحكومات العربية أَن تمنحه رتبة وزير مفوض ، رغم ما بذله رئيس جمهورية تلك البلاد ، ورغم ما بذله هو من شتى الوسائل والإلحاح مع كل عضو من أَعضاء مجلس (البرلمان) في تلك البلاد ، راجياً ومتوسلاً ومسترحماً ومستعطفاً ، أَن يعطف عليه بمنحه تلك الرتبة ،

ولكن إلحاحه واستعطافه تفتتا على صخرة نظام تلك البلاد الذي يحول دون دخول أَي عربي في السلك السياسي ، ما لم يكن من أهل البلاد أَنفسهم .

وقد أُثيرت ضجة حول هذا الرجل بين رجال الدولة وأَعضاء (البرلمان) فيما بينهم ، بين من يريد أَن يلتزم بتطبيق النظام وبين من يريد أَن يستجيب لإلحاحه وإستعطافه من ناحية ، ومن يحاول أَن يواسيه كعربي مشرد عن وطنه من ناحية ثانية .